

مِيثَاق أُهل القُرآن

قيم معيارية منتقاة للوفاء بحق كتاب الله

(إلى حملة كتاب الله وخُدّامه)

د. صالح الدقلة

مِيثَاق أَهْلِ القُرْآن

قيم معيارية منتقاة للوفاء بحق كتاب الله

(إلى حملة كتاب الله وخُدّامه)

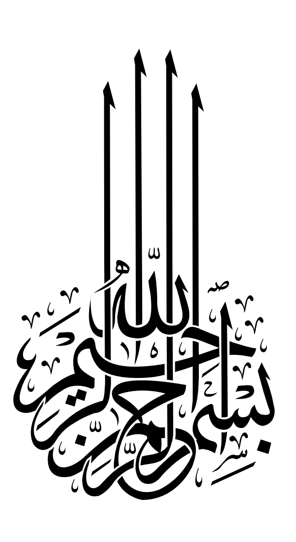
مِيثَاق أهل القُرآن

(إلى حملة كتاب الله وخُدّامه)

قيم منتقاة للوفاء بحق كتاب الله

تأليف

د. صالح بن أحمد الدقلة الزهراني


بسم الله الرحمن الرحيم

ح صالح بن أحمد بن يحي الزهراني، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، صالح بن أحمد بن يحي

ميثاق أهل القرآن. / صالح بن أحمد بن يحي الزهراني - مكة المكرمة، ١٤٤١هـ

١٢٠ ص؛ ١٤ X ٢١ سم

ردمك: ٣- ٨٨٥٢- ٠٣- ٦٠٣- ٩٧٨

١ - القرآن - مباحث عامة　　أ- العنوان

ديوي ٢٢٩　　١٨٨ / ١٤٤٣

رقم الإيداع: ١٨٨ / ١٤٤٣

ردمك: ٣- ٨٨٥٢- ٠٣- ٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

- إلى والدي الأميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان لا يتمكن من قراءة شيء مكتوب سوى (ربع يس).
- إلى أمي الأمية التي لا يتوقف صوت القرآن في بيتها.
- إلى زوجتي التي حفّظت بناتها كتاب الله.
- إلى أهل القرآن حيث كانوا.

المقدمة

الحمد للّه والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمد بن عبدالله مُبلّغ الوحي الأمين، أما بعد.

لكل مهنة أخلاقها التي تنظم علاقات أهلها وتضبط سلوكهم وتغذي تصوراتهم، وخير من تمثّل الأخلاق وعاش بها، هم أهل القرآن، وخير أهل القرآن رسولنا محمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

ولأن علاقة أهل القرآن بالقرآن علاقة عهد وفاء وميثاق التزام؛ كان لا بد من تدوين ملخص يحوي إشارات للملامح القيمية لهذا الميثاق الشريف، الذي يسهم في إحياء قيم القرآن الكريم في نفوس حافظيه وطلابه وخُدّامه، ليتمكنوا من حمل هذا الشرف العظيم، والمسؤولية الجسيمة. وذلك من خلال تمثل قيم وأخلاق أهل القرآن.

وحين تعمل هذه القيم كعرف أخلاقي وتصبح مرجعا نفسيا تحتكم إليه النفس كلما ساومها الهوى؛ حينها تصبح هذه القيم ميثاقا.أشبه ما يكون بصحيفة شعورية تحتوي على عهد يلتزمه الإنسان ويحكّمه في نفسه كمعيار لضبط تفكيره وشعوره وسلوكه.

وكما أن لكل مهنة ميثاقها الأخلاقي فإن أعظم ميثاق لحملة القرآن هو القرآن نفسه، وحتى يتم بناء النفوس ومعالجتها للوفاء بهذا الميثاق العظيم فلابد من إحياء بعض المعاني التي قد تغيب عن حامل القرآن فيضعف التزامه بميثاق القرآن العظيم . وهنا بعض عبارات الربط بين سمات هذه القيم وبين كونها معيارا للوفاء بميثاق القرآن العظيم:

الشرف: حقيقته عهد يقوم النفس يلزم من تلقى التشريف أن يحترم التكليف.

الوفاء: عهد بأداء الحق والعناية بالتمام كلما زاد الابتلاء.

الالتزام : وثيقة في الذهن تضبط علاقة العقل والنفس.

الإحسان: معيار لا يغيب عن نظر الإنسان، ضابط لمستوى الأداء الحسي والمعنوي.

الأخوة : عهد أوجبه الإسلام.

الصبر: وصية المؤمنين للثبات على الحق.

الشكر : دين يلزم النفوس بالسعي في محاب المنعم.

الجماعة : عهد وبيعة في الرقاب.

العداوة : عهد من الله للخلق بعداوة إبليس.

لقد جاءت هذه المدوّنة القصيرة لتلقي الضوء على بعض المعاني العميقة، منتهجةً نهج العرض السريع، والانتقاء غير

الشامل للموضوعات، دون تعمّق في تداعيات المعارف من الناحية البحثية المتبعة في البحوث والدراسات، ذلك أن الغرض هو تسهيل وصول الرسالة، ورشاقة الأسلوب، ليتمكن الراغب من قراءتها في جلسة واحدة أو اثنتين دون عناء، بالحد الأدنى من التركيز وصفاء الذهن.

أملي ورجائي أن يكتب الله لها القبول عنده، وحسن الفهم والعمل عند الخلق.





ميثاق الشرف

النشأة الشريفة

أخبر اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ملائكته عن قادمٍ له مهمة، اختاره اللّه لها، واختارها له. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وقد ظهرت ملامح التكريم من مجرد الاختيار الذي جاء في سياق يخالف ما كان يخشاه الملائكة من سفك الدماء والإفساد في الأرض حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[2]؛ فقال اللّه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي هذا إشارة إلى خيرٍ يعلمه اللّه في مهمة هذا الخليفة وسيرته وسيرة ذريته من بعده.

ثم بدأت أول معالم التكريم حين خلقه اللّه تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ثم علّمه علمًا لم يعلمه الملائكة وأسكنه الجنة ومكّنه من رغد عيشها بلا كد ولا تعب.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣٠.

لقد بدأت مسيرة الإنسان بهذه المقامات الشريفة ولقد استقبل الإنسان مهمته الشريفة (خلافة الأرض) بالتشريف والتكريم والامتياز. ولقد كان لهذا التشريف حِكَم عظيمة، من أهمها: تمكين الإنسان من تحمّل التكليف؛ حيث يسهل على من تلقى التكريم أن يتقبل ما يُكلّف به ممن أكرمه.

علاقة التأثير بين التشريف والتكليف

- ما العلاقة بين التشريف والتكليف؟
- كيف يؤثر التشريف في جودة الأداء؟
- كيف يعمل التشريف كميثاق أخلاقي لدى الإنسان عمومًا، ولدى حملة كتاب الله على وجه الخصوص؟

النفس البشرية تحمل في تكوينها الداخلي استعدادًا فطريًا يُمكّنها من فهم التكريم وملاحظته، وحين تلاحظ النفس مقامات الشرف التي حظيت بها، ومعالم التكريم التي وُهبت لها، فإنها تصبح مضطرة لقبول التكليف الذي نتج من هذا التشريف .

وهذا يعني: أن من استشعر التشريف احترم التكليف.

فكلما كان الإنسان مستحضرًا للشرف الذي ناله، فإنه يبقى منتبهًا لسلوكه، حتى لا يفعل ما لا يليق بذلك الشرف.

وهناك ثلاثة طرق لتوظيف التشريف في تحفيز الإنسان لكي يتقن ويحترم التكليف الذي هو العمل:

١. التشريف قبل التكليف: وهو تقديم الامتيازات للإنسان قبل تكليفه بالعمل على أساس أنه شخص يُفترض فيه حسن الوفاء، وأن هذا التكريم سيجعله مدينًا بالفضل، وسيدفعه استشعاره للتميز الذي ناله إلى السعي للمحافظة علي هذا التميز والتكريم، وستمنعه مروءته من تجاهل هذا الفضل أو نسيان هذا التميز، وبالتالي فإنه سيتميز أيضًا في أداءه وفي سلوكه.

ونجاح هذه الطريقة مرهون بسمات الشخصية لدى من يقع عليه الاختيار، فإذ كان شخصًا لا يحترم التكريم فإنه سيتمتع بالامتيازات فقط، ولن يسعى لتقديم عمل لائق بما تمتع به من امتيازات.

٢. التشريف بعد التكليف: وهو أن نطلب من أي إنسان أن يؤدي عملًا ما، ثم نعده بمكافأة أو امتيازات نوعية إذا هو أدى عمله بنجاح وتميز. والذين يقبلون هذه الصفقة يعملون وفي أذهانهم جمال العاقبة، وجمال اللحظة التي سينالون فيها نتيجة عطائهم ومكافأة مثابرتهم.

ونجاح هذه الطريقة مرهون بصدق ووفاء الذي يمنح الامتياز، ويعِد بتقديم المكافأة، فإذا كان ظالمًا، أو لئيمًا، فإنه لن يفي بوعده، لأنه يقدم وعودًا وهو يعلم مسبقًا أنه لا يستطيع الوفاء بها.

٣. الطريقة الثالثة تجمع بين الطريقتين السابقتين؛ فيتم تقديم التكريم أولًا، ثم يتم تكليفه بالعمل، مع الوعد بمزيد من التميز والتكريم إذا هو نجح في عمله أو أداه وفق ما طُلِب منه.

وهذه الطريقة تعطي للجميع الفرصة للعمل؛ فالجميع ينال التكريم منذ البداية، ومن يكون أهلًا لهذا التكريم ويكون ذا نفس كريمة ومروءة وحياء سيثابر في عمله، فيستحق مزيدًا من العطايا والهبات بعد إنجاز العمل، فإن الذي أكرمه قبل أن يعمل لن يتخلف عن إكرامه بعدما عمل.

واللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد كرّم بني آدم، ثم كلّفهم بعبادته، ثم وعدهم إن هم أحسنوا العمل؛ بالتمكين وحسن الجزاء في الدنيا وفي دار كرامته يوم القيامة.

ومن يكرمك ويختارك منذ البداية، فقد عاملك معاملة النبلاء الذين يُنتَظَر منهم حسن الأداء. وحين يحدث منك ما يخالف هذه النظرة فإن النتيجة هي خسران التشريف وسحب الامتيازات والتعرض للمحاسبة.

معالم شرف أهل القرآن

أبرز معالم التشريف التي صاحبت هذا الكتاب العزيز ما يلي:

١. أنه كلام اللّه جَلَّجَلَالُهُ وهو خير الكلام وأكمله وأحسنه لفظًا ومعنى.

٢. أن اللّه رضيه للخلق، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾(١).

٣. أنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ اختار له أشرف الملائكة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لينزل به على قلب أشرف الخلق محمد ﷺ.

٤. واختار جَلَّ وَعَلَا لوقت نزوله خير الشهور (شهر رمضان) وخير الليالي (ليلة القدر).

٥. واختار جَلَّ وَعَلَا لمكان النزول خير البقاع وخيرته من الأرض (مكة المكرمة).

٦. كلّف بحمله وتلقيه في زمن نزوله خِيرة الخلق بعد الرسل؛ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أجمعين.

ومع كل هالة الشرف هذه فقد تحمّل هذا الكتاب وتحمّل مسؤولية خدمته والعناية به؛ الأشراف من الناس جيلًا بعد جيل.

إنك بحفظك لكتاب اللّه أو بخدمتك لكتاب اللّه، تختار الوقوف في سلسلة الشرف، فأنت لهم خلف وهم لك سلف.

وسوف ترى وتشاهد في الحياة طوابير كثيرة يصطف الناس فيها، لكنك هنا في صف أهل القرآن، فأنظر أين وضعك اللّه.

لقد وضعك اللّه في سلسلة الشرف ابتداءً .

لقد استعملك في حمل كلامه حفظًا وتلاوة وإمامة.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

أو استعملك في خدمته بالتعليم أو الرعاية والعناية.

لماذا أنت؟!.... لماذا توزع الناس في مجالات الحياة، وجيء بك لتكون مع أهل اللّه وخاصته؟

إنه التشريف الذي منحه اللّه لك قبل أن يحمّلك أي تكليف تجاه كتابه العزيز. فكما بدأ اللّه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتكريم والتشريف، فها أنت تنال التكريم بمجرد أن تنضم لأهل القرآن وقبل أن تقدم أي شيء.

قلنا إنّ من ينال التشريف قبل التكليف فقد تلقى رسالة مفادها أن المتوقع منك هو الوفاء والتصرف بما يليق بهذا التوقع[1]. واللّه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أعلم بالشاكرين.

لا يعتقد أحد أنه بخدمته لكتاب اللّه قد قدّم وأعطى أكثر مما أخذ، فإن توفيق اللّه له وإذنه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ له بأن يخدم كتابه لهو شرف لا يكافؤه عطاء العمر كله. وهذا شرف يؤخذ في سياق المنّة للّه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وليس على هيئة الفخر والتباهي المجرد عن العمل بما يليق بحال الشاكرين.

ثمن التشريف:

التشريف دَين، والتكليف سداد ذلك الدين، فاللّه يُكرم

---

(١) التوقع باعتبار القاعدة في واقع البشر، وأما بالنسبة إلى علم اللّه فاللّه عليم بعمل العباد ما تقدم منه وما تأخر.

العبد ثم يكلفه، لأن النفس السوية إذا نالت التكريم التزمت بما يترتب عليها من واجبات.

ويقابل كل تشريفٍ تكليفٌ يليق به ويناسبه، فمن شرّفه اللّه بالعلم لزمه عمل لم يُلزم به من لم ينَل ذلك العلم، والرسل الكرام كانوا أكثر الناس وفاءً بشرف النبوة وكرامة اللّه لهم، فهم يستحضرون ذلك التكريم كلما عَرضَت لهم الفتن وواجهتهم المغريات. قال اللّه تعالى عن نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يردّ الفتنة باستحضار فضل اللّه عليه وتكريمه إياه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾[١]؛ فاستحضر عَلَيْهِ السَّلَامُ تكريم اللّه له ليستعين بهذا المعنى (العالي) على دفع الرذيلة (الوضيعة)، وسرعة حضور هذا المعنى في ذهنه يدل على نبل نفسه ومروءته، وطيب معدنه.

ولأن التكريم وسيلة فعالة في تحفيز النفوس للعمل القويم والتصرف السليم؛ فإن اللّه يستنهض النفوس بما فيها من استشعار للشرف وتقدير للتميز الذي وُهِب لهم لكي يقابلوا التشريف باحترام التكليف، ويقابلوا العطاء بالوفاء قال اللّه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٢]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مُبيّنًا سمة التفضيل ومُذكّرًا

(١) سورة يوسف، آية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٠.

بها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، وبالطريقة نفسها يخاطب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قومه ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وعلى نفس المنوال من الإشارة إلى الاختيار والتشريف والتفضيل والتميز باعتباره مقدمة مؤثرة في نفوس الشرفاء والكرماء وأصحاب المروءات والنفوس الزكية الذين إذا تذكروا تكريمهم بالاصطفاء تحمّلوا العمل وأحسنوا الأداء؛ يخاطب الله جَلَّ وَعَلَا هذه الأمة بقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3].

والملاحظ أن استشعار التشريف هو الفارق المؤثر بين من فضّلهم الله وعملوا وفق مراده منهم، وبين من تباهوا بالتفضيل ولم يعملوا وفق مراد الله، فليس الفضل في مجرد حصول التشريف فقد حصل لبني إسرائيل منه ما لم يُؤت أحد من العالمين، لكن الفضل في استحضار واستشعار الشرف والتميز عند اختيار السلوك، فلا يُقدِم العبد على عمل غير لائق بمن اصطفاهم الله أو اختارهم أو استعملهم في مهمة شريفة ومسيرة مميزة.

(١) سورة البقرة، آية: ٤٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

- التشريف ليس امتيازات نباهي بها فقط؛ بل ميثاق التزام بين أكرم الأكرمين جَلَّجَلَالُهُ وبين الشرفاء من عباده.
- اختيار الله لنا بأن نكون من أهل القرآن أو من خدام كتابه الكريم، لا يعني أننا الأفضل بل يعني أننا دخلنا في اختبار ليبقى الأفضل.

فالتباهي بحيازة معالم التشريف لا يغني عن صاحبه حين يتعرض للمحاسبة على ضياع التكليف، فتأمل قول النبي ﷺ وهو ينصح لعشيرته والأقربين، وينصح لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث المشفق عليهم والمُحذّر لهم من الاتكال على قرابتهم منه أو الاغترار بشرف النسب من غير عمل حين قام رَسولُ الله ﷺ حِينَ أَنْزَلَ الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّه شيئًا، يا بَنِي عبد مَنَافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شيئًا، يا عَبَّاسُ بنَ عبد المُطَّلب لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شيئًا، ويَا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ الله لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شيئًا، ويَا فَاطِمَةُ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شيئًا»[1].

التكريم والتشريف والاختيار؛ إنما الغرض منها تمكين

(١) أخرجه البخاري، ومسلم.

النفوس من تقبّل العمل، وتشجيعها على القيام بما يجب عليها، لكن حين نغتر بأنفسنا ولا نعمل، فإن التشريف يكون أداة معاتبة ويرفع من معيار المحاسبة.

كلما زاد التشريف زاد معيار المحاسبة

من السهل على الأنسان أن يتمتع بالامتيازات وأن ينال خصوصية ليست لغيره، ويستثمر من الفرص ما لا يجدها غيره، لكن عند المحاسبة سوف يؤخذ كل ذلك بعين الاعتبار قال اللّٰه تعالى لنساء النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[١].

ويأتي هذا النوع التكليفي الجزائي المحاسبي، لأنهن رضي الله عنهن لسن كأحد من النساء تشريفًا وتكليفًا، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٢].

إن حمل القرآن يعني قبول حق القرآن والموافقة منذ البداية على القيام بهذا الحق، فهذا سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما يوم معركة اليمامة وقد اشتد القتال على المسلمين واستحرّ القتل فيهم واخترق المرتدون قلب

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٠-٣١.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٢.

الجيش حتى وصلوا خيمة خالد بن الوليد وصاح خالد في الناس: امتازوا أيها الناس فكان كل فئة تحت لوائهم، وكان لواء المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأوصوه ألا يؤتوا من قبله، فقال كلمته المشهورة: (بئس حامل القرآن إذن)[1]، ومعناه، فما قيمة انتسابنا للقرآن وحمله في صدورنا إذا لم يظهر في أفعالنا اليوم.

بئس حامل القرآن الذي يقرأه لا يجاوز حنجرته.

بئس حامل القرآن الذي نال بالقرآن احترام الناس، ثم لا يسعى لينال به رضا اللّه تعالى بتحقيق عبادته وحده لا شريك له بأجلى صورها.

نعم حامل القرآن الذي كان خُلُقه القرآن.

نعم حامل القرآن الذي قدّر هذا الشرف واستشعره ولم يزجّ بنفسه فيما لا يليق بكتاب اللّه وحفظة كتاب اللّه.

إن شرف القرآن الكريم ليس لحامليه فحسب، بل حتى للذين يخدمون حَمَلَتَه ويرعونهم ويربونهم وينفقون عليهم؛ وهذا يعني أن ميثاق الشرف يشمل الجميع، فهذا الميثاق يلزم كل من نال التشريف أن يحترم التكليف، وأن يراقب سلوكه وأفعاله وأقواله وحاله، وأن يجاهد نفسه ليتحلى بحلية أهل القرآن الشرفية والخلقية.

---

(١) البداية والنهاية.

يا أصحاب سورة البقرة

في غزوة حنين لقي النبي ﷺ والصحابة شدة من القتال، حتى تفرّق الناس من أثر السهام التي انهالت عليهم. فأمر النبي ﷺ عمّه العباس فنادى بقوله: يا أصحاب السمرة[١]، يا أصحاب سورة البقرة[٢]؛ فعادوا يعطفون عليه من فورهم تلمع سيوفهم في عجاج الحرب.

لقد كانت بيعة الرضوان (عند الشجرة) شرفًا عظيمًا ومنقبة عالية لمن شهدها، وهي اليوم (يوم حنين) مسؤولية يليق بأصحابها أن يكونوا حول النبي ﷺ، ويليق بهم قوله ﷺ حين التفوا حوله ودارت رحى البأس (هذا حين حمي الوطيس).

ولقد نودي أصحاب سورة البقرة للسبب ذاته؛ فهم أليق الناس بها شرفًا وأليق الناس بهذا الشرف التزامًا.

يا أهل القرآن حُفّاظًا ومعلمين وخُدّامًا

يا أهل الزهراوين.. يا أهل الفرقان.. يا أهل حم.. يا أهل الله وخاصته؛ دينكم وسنة نبيكم اليوم في غربة مجتمعاتكم، وأوطانكم إلى نور القرآن في حاجة، وكأني

(١) مسند أحمد ١٦٧٩، والسمرة هي الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان يوم الحديبية.

(٢) مسند أحمد ١٦٨٠ عن كثير بن عباس قال: كان عباس وأبو سفيان معه يعني النبي ﷺ قال فخطبهم وقال: الآن حمي الوطيس وقال ناد يا أصحاب سورة البقرة.

بالعباس يناديكم؛ يأهل سورة البقرة... أو بلسان الحال: يا أحفاد أصحاب السَمُرة.

يناديكم لتكونوا قدوات في التعامل، وقدوات في الأخلاق. يناديكم لتكونوا مُثلاً عليا في مجتمعاتكم وخيراً على أهليكم، وفئة يأوي الناس إليها من الفتن إذا حمي الوطيس.

يا خُدّام كتاب اللّه: لا تتولوا مدبرين لأن سهام التشويش انهالت عليكم، فالقرآن ينادي كل من عاهد اللّه لينصر كتابه، ينادي قلم الكاتب، وريال التاجر، وعقل القائد، وإدارة الخبير ليتطوعوا في خدمة القرآن؛ الذي يناديهم اليوم كما نادى العباس أصحاب السمرة الذين بايعوا تحت الشجرة، فلقد قلّ الناصر وضعُف المعين وازدادت المغريات، فامضوا قُدمًا في العناية بكتاب اللّه.

خلاصة ميثاق الشرف:

قبول المهمة في التشريف الملزم	يعني أن نقبل المهمة في أشرف صورة لها مستحضرين مسؤولية التشريف
كلما عظم التشريف زاد التكليف	حين نستحضر منة التكريم فإن نفوسنا تكون مستعدة للأداء الحسن الذي يليق بذلك التكريم
نسيان شرف المهمة يؤدي إلى تدني الهمة	متى ما نسي الفرد شرف مهمته فإنه سيفقد علو همته وسيقبل بالخيارات الرخيصة في غياب استشعار التميز

الفرق بين الكبر والاعتزاز بشرف القرآن

حتى لا يقع الالتباس بين من يتباهى بشرف القرآن ويعجب بنفسه، أو يتكبر بسبب علم أو نسب، وبين من يعتز بالمكارم دون كبرياء؛ يعتمد على مدى استشعار حق اللّه وفضله، ثم حق الناس وفضلهم، وملاحظة قدر النفس ومنزلتها، وأنها لم تكن شيئا لولا فضل اللّه وما يسّره من عون العباد.

الشرف شعور بالمنة... فالنفس الشريفة مفتقرة للّه الذي شرّفها، والنفس المغرورة، مفتقرة لثناء الناس غافلة عن ثناء اللّه أو مقته. فقد تطلب ثناء الناس بفعل ما يمقته اللّه.

الشرف ترفّع عن الرذائل... حيث يستشعر الرجل النبيل كل المعاني الشريفة التي تمنعه من فعل القبائح، كقول النبي ﷺ: «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[1]؛ فشرف النبوة وأخلاق الأنبياء لا تسمح بفعل كهذا.

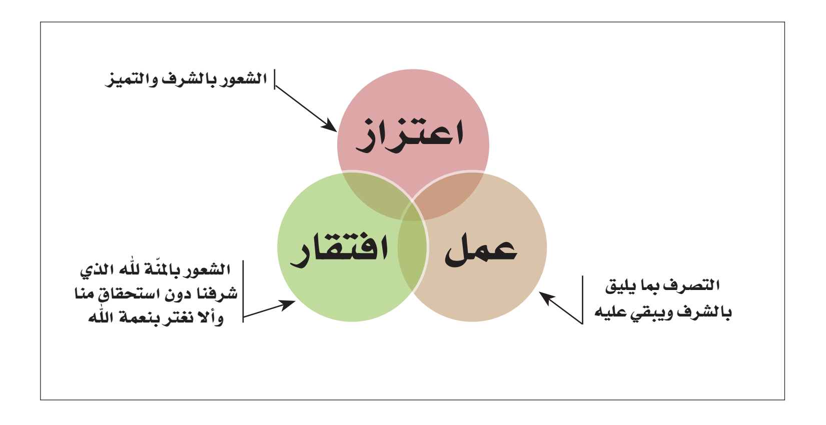
والكبر ترفع عن الفضائل... فالكبر بطر الحق، فيجد المتكبر صعوبة في قبول الحق، ويجد لذة في غمط الناس، وذلك بجحود مميزاتهم وعدم الاعتراف لهم بأي فضل. فالمتكبر معتز بنفسه لنفسه.

فالشرف الحقيقي هو ما يناله العبد من استعمال اللّه له فيما

---

(١) صحيح سنن أبي داود.

يحب، فيجمع بين الاعتزاز بنبل هذا الاختيار والسعي للعمل وفق مراد اللّٰه منه، مستحضرا منّة اللّٰه عليه بهذا العمل ومفتقرًا لعون ربه لكي يوفّي بما يلزمه حيال هذه المنّة.





ميثاق العهد

أخذ اللّه على الناس ميثاقًا ليعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1].

معناه يعبدوه أي لا يصرفون لغيره عملًا لا يحق إلا له وحده، ولا يتقربون إليه بعمل أشركوا فيه سواه، فهو غني عن الشرك فلا يقبل إلا خالصًا دون سواه، وهذا حقه الحصري سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الذي لا ينازعه فيه الا ظالم.

وأخذ اللّه على الرسل بيان هذا العهد وبيان تفاصيل الوفاء به ونظام المحاسبة عليه، وتذكير الخلق به، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾[2].

وأخذ اللّه على الرسل أيضا ميثاقًا أن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ وبالكتاب الذي يُنزّله اللّه معه وهو القرآن الكريم، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧.

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

فالأصل أن العمل المطلوب من البشر ما هو إلا وفاء بعهد وميثاق سابق.

ولقد أخذ اللّه على بني إسرائيل عهدًا أن يبينوا الكتاب للناس، ولكنهم جعلوا آيات اللّه سبيلًا لنيل الدنيا، ولك أن تتصور كم هي صفقة خاسرة أن تبيع الغالي لتحصل على الرخيص. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[2].

ليست المشكلة في أخذ الثمن مقابل تعليم كتاب اللّه، أو إمامة الناس به بالصورة الصحيحة شرعًا، لكن المشكلة في طلب الدنيا بالتنازل عن محكمات كتاب اللّه، أو أن نزعم أننا نؤدي العمل وفاء بحق اللّه، ثم نتصرف بطريقة يتحول فيها العمل لغيراللّه، أو أن يكون طلب الدنيا هو المقصد الوحيد من هذا العمل الأخروي الجليل.

الوفاء بالعهد لا يكون إلا لمن أخذ علينا الميثاق، وكما أنه لا وفاء لغير صاحب العهد، فليس من المعقول أن نستوفي من غيره أيضًا.

(١) سورة آل عمران، آية: ٨١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

فحين نقول في أنفسنا أننا نتعلم القرآن للّه تعالى فإننا نعني بذلك أنه هو وحده من ننتظر منه الجزاء ونرجوه.

وحين نقول أننا نقدم ما نقدمه من أجل كلام اللّه وكتاب اللّه وأهل القرآن فإن هذا يعني أن الذي نوجه له النية والعمل هو اللّه له نوفي ومنه نستوفي.

والناس في مسالة قصد وجه اللّه ونية العمل أنواع:

النوع الأول: نوع يرائي بتعلمه وتعليمه وتلاوته لكتاب اللّه

وهذ حاله كما جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا كان يومُ القيامةِ، ينزلُ إلى العبادِ، ليقضيَ بينهم، وكلُّ أمةٍ جاثيةٌ، فأولُ من يُدعى به رجلٌ جمع القرآنَ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللّه، ورجلٌ كثيرِ المالِ، فيقولُ اللّه عَزَّوَجَلَّ للقاريءِ: ألم أُعلِّمْك ما أَنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا ربِّ، قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنتُ أقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فيقولُ اللّه عَزَّوَجَلَّ له: كذبتَ، وتقولُ له الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: بل أردتَ أن يقالَ: فلان قاريءٌ، وقد قيل ذلك».

النوع الثاني: نوعٌ تعلم القرآن مقتديًا بمن أُعجب بهم وبهرته أصواتهم أو إتقانهم لكتاب اللّه أو بروزهم في مجال القرآن الكريم، ثم عرض نفسه على القرآن

وصدق مع نفسه، فصنعه القرآن وهداه اللّه بمواعظه، فثبت واستمر في الطريق، لا يريد إلا اللّه وحاله كمن قال: تعلمنا العلم لغير اللّه فأبى اللّه إلا يكون له.

والنوع الثالث: انطلق يريد شرف القرآن ويريد ما عند منزّل القرآن جَلَّ وَعَلَا من فضل وأجر عظيم، وكلما عرضت له فتنة أو عقبة أو مانع جاهد نوازع نفسه واستحضر مقصده ونيته الأولى، وكأنه يرى اللّه ولا يرى غيره فيتجاوز كل من بينه وبين اللّه، ويسير إليه لا يتوقف دونه، ففيه السير وإليه المسير وفي ضيافته المبيت.

النوع الرابع: وهو كالثالث من حيث قصده ونيته وطلبه لما عند اللّه، لكنه التفت إلى الذين اعترضوه في الطريق فشغل نفسه بهم وعلق نفسه بشكرهم وعونهم، فلما جحدوه ولم يجد منهم شكرًا وخذلوه ولم يجد منهم عونًا؛ عاد على نيته فراجعها وندم على صدقه مع قوم لا يقدّرون الصادقين. ونسي أنه إنما عاهد اللّه وأنه أجير عنده. فكيف يطلب أجرته من غير من استأجره، وينتظر الشكر من غير من استوفى منه العمل وجرى معه العقد!؟ فترك القرآن، والعمل له وخدمته وخدمة أهله من غير عذر مانع.

النوع الخامس: هو مثل الرابع، لكنه بعد أن تنكرت له الوجوه ولم يجد من الناس ما يتوقعه من حفاوة، وشاهد أهل الدنيا يفضّلون عليه رعاع الناس وسفهاءهم، وأحاط ذهنه بالتفكير في كثرة الخبث، وعدم جدوى الثبات، فنكص على عقبيه وانقلب عن نيته وعمله مع القرآن وأهله فإذا عاتبته نفسه على ما فعل، وشعر بألم لما فرّط فيه من خير، وخاف من سوء العاقبة؛ أسعفه الشيطان بحجة يغطي بها ما بقي من نور القرآن في قلبه، وأقنعة بحجة (من التأويل والمعاذير) تخفف عليه حرارة الشعور بالنقص والذنب والخسارة، ولكي يهرب من واقعه الأليم مع نفسه يهرع إلى تصديق الباطل، ثم لا يلبث أن يتبناه ويؤمن به حتى ترتاح نفسه من عناء الانفصام. فتراه من أكثر الناس عداوة لأهل القرآن، وإذا عثر أحدهم أو وقع منه زلة، طار بها فرحا فكان من أقذعهم نقدا وأحدِّهم لسانًا، وكأنه يقول الحمد لله الذي نجاني ولو بقيت معهم لكان وكان!! ويتباهى بأسطورته التي لا يصدقها غيره،

والعجيب أنه بهذا التصرف خسر شرف أهل القرآن، ولم ينل ثناء الناس، بل سرعان ما يتفطّن إليه أهل الباطل فينتعلونه ويستخدمونه في تشويه صورة أهل الله

خاصته، حتى إذا شبِع من وحل الهراء، وتقطع من شدة العواء، خلعوه عند أول عتبة يصلونها وانتعلوا غيره.

عقد الوفاء ومرحلة الابتلاء

جرت سنة الله في أوليائه أن يبتليهم لحكمة هو المحيط بها علما ورحمة وخبرة، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

حين يعلن المؤمنون من أنفسهم أنهم مؤمنون أو يعملون عملاً لله، فقد جرت سنة الله تعالى أن يتم اختبار هذا الزعم ولوكان في أصله صحيحًا، فكم من أناس ظنوا أن نواياهم صافية ومقاصدهم خالية من كل شائبة ولكن الله يعلم بخفايا القلوب التي تخفى على أصحابها فعلم الله بنا خير من علمنا بأنفسنا، وتأمل ما حصل من حال الصحابة الأطهار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوم أحد، ونزول قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾[2]، وقول ابن مسعود عن ذلك: (ما علمنا أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يومئذ)[3] يعني يوم أحد.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٢-٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٢.

(٣) تفسير بن جرير الطبري ماجاء في تأويل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾.

(فأما من قال: آمنت فلا بد أن يمتحنه الرب ويبتليه، ليتبين: هل هو صادق في قوله، آمنت، أو كاذب؟ فإن كان كاذبًا رجع على عقبيه، وفر من الامتحان، كما يفر من عذاب الله، وإن كان صادقًا ثبت على قوله، ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانًا على إيمانه)[1].

فالوفاء بالحقوق في السراء والسعة والرخاء والدعة لا يكشف حقيقة القلوب ولا يُمحّص ما فيها، بل حين تقع الفتن، وتتخلف التوقعات، وتهتز النفوس، مثل أن يصطدم حملة لواء القرآن بواقع محبط أو معيق، أو يتنكر لهم القريب ويخذلهم الحبيب، وحين ينفضّ الناس من حولهم ليتبعوا بريق الغي وجلبة الباطل؛ حينها تنكشف أرصدة القلوب، ويقع مقصود قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾[2] صدقوا في ما وعدوا به الله، وما ادعوه من الصدق معه وله تعالى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ الذين يظنون أنهم يريدون الله فلما ابتلاهم اتبعوا غيره.

الممكنات فرصة للعطاء وليست شرطًا لتمام الوفاء:

حين تتوفر الإمكانات يتحفز الجميع، فترى السباق على العمل لكتاب الله ولخدمة أهله، وترى التنافس بين الحفاظ والتنافس بين معلميهم ومن يقوم على شأنهم، ولكن حين

(١) إغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٩٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٣.

تقل الإمكانات ينفضّ الناس. ليست المشكلة أن يقل الناس حين تقسوا الظروف أو تقل الموارد، فليست هذه مشكلة، لكن المشكلة حين يعود الهاربون ليأخذوا معهم من بقي صامدًا (رغم قسوة الظروف) فهم كمن يقنع الباقين على جبل الرماة بترك الجبل.

قد يمنّ اللّه علينا بظروف محفزة وبيئات عمل مشجعة ليجذبنا إلى مائدة القرآن رحمة بنا ومراعاة لبشريتنا وتأليفًا لقلوبنا، ولكن بعد أن يعلمنا القرآن ويرقي أحوالنا، ويزكي نفوسنا، فإن الوقت يكون قد حان لمنح المميزين مكافأة تليق بالدرس الذي تعلموه، والهدى الذي وجدوه. فتقل الموارد وتضعف المحفزات، ولا يبقى إلا من دافعه من داخله وموارده من هدايات القرآن وأسراره ومواعظه.

معادلة الوفاء الكبرى

هذا الكتاب العظيم يعطي أهله بسخاء، ويهبهم من الخير الكثير، لكن عطاياه درجات ومن أعظم عطاياه شكر اللّه لأهل القرآن.

من الذي يمكنه أن يفي بحق اللّه تعالى؟... لا أحد يمكنه ذلك، فحق العظيم عظيم.

ومن الذي يستحق الشكر على حق لا يمكنه أن يفي به؟

لا أحد يستحق الشكر حتى يوفي بما عاهد عليه أو وجب عليه من الحق.

لكن اللّه تعالى من رحمته وفضله أن جعل الوفاء الواجب فيما يسع الإنسان القيام به من إيمان وقول وفعل، بل وتفضل على من يفي بهذا القدر بالشكر منه تعالى.

وعندما نتحدث عن شكر اللّه للعبد فلنعلم أننا نتحدث عن رحلة تبدأ بالعمل وتمر بالابتلاء وتنتهي بالشكر من اللّه.

فمن وفى بما التزم به ووفق في الوفاء بالتزامه حين يبتلى فاللّه تعالى خير من وفى بحق ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1].

نص القانون:

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

اللّه اشترى والمؤمنون باعوا فما الثمن؟

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

(٢) سورة التوبة، آية: ١١١.

وحين يكون المشتري هو اللّٰه جَلَّ وَعَلَا فليس هناك حاجة لنضع الشروط فلا شرط لأحد على اللّٰه.

لأنه العدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا ظلم، فالحقوق عند اللّٰه مكفولة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[١].

ولأنه هو صاحب الإحسان والفضل لمن عمل وأحسن عمله ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢].

ولأنه الرحيم في استيفاء حقه من عباده فلا يكلفهم فوق ما يطيقون، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٤].

ولكمال علمه وحكمته وقدرته فلا يخشى من يعمل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يلحقه سوءٌ؛ لكمال خبرته وحكمته وقدرته وحسن تدبيره، وكمال ذاته وصفاته جَلَّ وَعَلَا، فالبيع للّٰه مربح والمنقلب منه آمن. فلن تجد أي سبب صحيح يدفعك لطلب الإقالة من هذا البيع.

وحين يكون العهد للّٰه والبيع له والسلعة منه فلن يكون

(١) سورة النساء، آية: ٤٠.

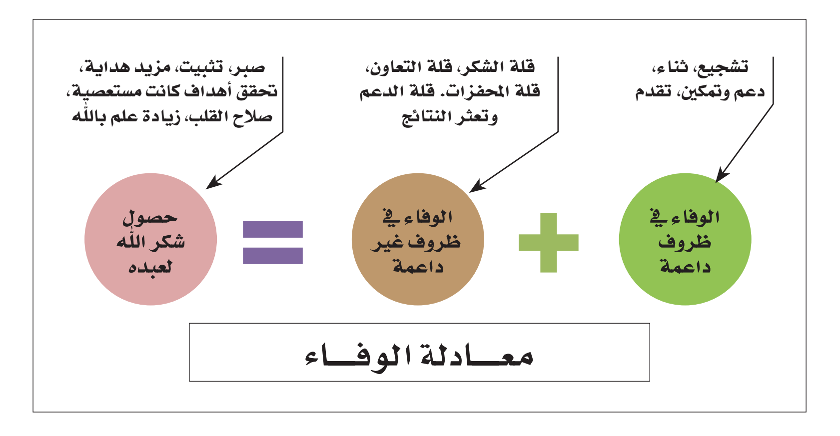
(٢) سورة النساء، آية: ٤٠.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٤٢.

هناك طرف ثالث يمكنه الدخول على هذا العهد، ومعنى هذا الكلام أننا حين نمضي في صفقة مع اللّه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يكون موضوعها القرآن وعلومه وخدمته وخدمة أهله فلن نقبل أن تتطلع نفوسنا للوفاء من غيره سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولن يقبل اللّه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ منا أن نوفي لغيره وقد عاهدناه وحده.

ولهذا كان لابد من مرحلة يتم فيها تخليص القلوب من التطلع لغير شكر الخالق، وألا نفي للّه بغير مراده وما يحب.



هذه المعادلة رغم صعوبتها فيما يظهر لكنها سهلة على من سأل اللّه العون على نفسه وجاهد في تزكيتها، واجتهد في إصلاح قلبه، وخالط الصالحين الذين يحيون القلوب ويذّكرونها.

وهذه المعادلة لا تلغي حق الإنسان في التوقف عما يعجز عنه. فاللّه لا يطلب منك فوق وسعك.

ولا تلغي هذه المعادلة سعادة النفس واستبشارها برؤية النتائج وحسن البشرى، من الثناء الذي يدلّ على التقدم والنجاح، وصحة الفعل، ما لم يخالطها عجب، أو تعريض بالمتعثرين أو مزايدة عليهم.

إنما تلغي (هذه المعادلة) الجمع بين النقيضين وهو أن ندعي في نفوسنا أننا اخترنا طريق اللّه، ثم نسير فيه على غير شرط اللّه. وشرطه هو: (أنا أَغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ غيري تركتُهُ وشِركَه)[1].

يجب علينا أن ننتبه إلى كل ما يمر بنا من ظروف ومواقف وحوادث وفتن، وهذا الانتباه لأجل الإجابة على سؤال واحد:

ماذا يريد اللّه أن يختبر فينا حين عرّضنا لهذا؟

وماذا يريد اللّه منا (فعله، أو قوله، أو اعتقاده) لكي ننجح في تجاوزه؟

وتذكر دائمًا: أن شكر اللّه سلعةٌ غالية، ومن الطبيعي أن يكون ثمنها على النفوس باهظاً،

كيف نستعد لاختبار الوفاء؟

امتلاك قناعات الاستعداد:

١. لا يمكن أن نمضي في طريق القرآن بغير هدى القرآن

(١) أخرجه مسلم ٢٩٨٥.

والسنة. فكل ما عظّمه القرآن فلنعظمه وكل ما هونه فلنهونه، وليكن حظنا من أخلاق القرآن أكثر من حظ غيرنا.

٢. لا طريق إلى الوفاء بما وجب من حق اللّه إلا باللّه. فحامل القرآن يفتقر إلى اللّه في هداية قلبه ويستعينه في القيام بما يحبه اللّه منه، ويتوكل على اللّه في طاعة اللّه.

٣. لن نشتاق لمائدة القرآن ونحن على شِبَعٍ من مائدة أخرى. فلن تجد في مصادر التثقيف الهابطة، أو مجرد الفارغة، ما يسعف قلبك، ويقوي ثباتك حين تتعرض لاختبار التمحيص.

٤. لن يدعك إبليس تنتبه لعداوته. ولهذا لا تدعه يختبئ خلف أعداء وهميين؛ يشغلك بخصومتهم وعداوتهم لينفرد بك وحدك.

٥. تأمل فعل اللّه فيما حولك وليس أفعال الناس، حتى لا تتمحور ردود أفعالك حول سلوكات الناس معك، بل ركز على فعل اللّه لك وتصرف وفق ما يراد منك كعبد للّه في مثل هذه الظروف.

٦. تذكر أن حسن الظّروف اختبار، وسوء الظروف اختبار آخر. ولكل اختبار تصرف يناسبه. ومحور جميع

التصرفات في جميع الظروف: ما ذا يريد اللّه أن يرى منك؟ فإرِ اللّه من قولك وفعلك وظنونك ومشاعرك خيرًا.

عادات من يستعدون لاختبار الوفاء[1]:

١. من عادتهم قيام الليل ولو قليلًا.

٢. من عادتهم تأمُّل وتدبر كلام اللّه بحسب كل حال.

٣. يجالسون الذاكرين.

٤. الإكثار من سؤال اللّه العون على ذكره وشكره تعالى.

٥. يحرصون على القرب من جماعة القرآن.

٦. يجاهدون سرائرهم مهما غلبتهم نفوسهم.

٧. يحرصون على الصلاة في جماعة.

٨. يتجنبون النزاع والخصومات والجدال.

٩. يتجاهلون كل قاعدة أو فكرة تهوِّن من صدق النية أو تُزهِّد في مكاسب الآخرة.

١٠. يجتنُبون الغيبة فلا يسمعون لمغتاب، خاصة من ينال من أهل القرآن أو العلماء.

١١. من عادات الأوفياء أنهم حين يطلبون الرزق في الدنيا

(١) ليس المقصود الحصر، ولكن اختيار هذه العادات، والسمات لأنها تعين على الوفاء بنائيا أو علاجيا أو وقائيا، وخشية الإطالة تجنبنا تبرير كل سمة منها.

فإنهم يذهبون للسوق بقوانين القرآن، ولا يأتون للقرآن بقوانين السوق.

١٢. يجعلون عداوة إبليس نصب أعينهم فهم من كيده في تعوذ وحذر.

١٣. يلاحظون حق اللّه عليهم فيما آتاهم.

وإبراهيم الذي وفّى:

لقد استحق إبراهيم الخليل هذه الوصف من رب العالمين بعد ابتلاءات عظيمة ودقيقة جدًّا. فلقد تعرض قلبه اللين وسمته الرحيمة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[1] (التي هي أصعب مواضع الاختبار) لهزات عاطفية تجعل القلب يقف على المحك بين رابطته وعاطفته وغريزته الأبوية وبين رابطته بربه. فلما رزقه اللّه بإسماعيل جاء الاختبار العظيم، قال اللّه تعالى يصف حجم الابتلاء وقوته على النفس: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

---

(١) سورة هود، آية: ٧٥.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٠- ١٠٦.

فلما قدّم حب الله على كل حب وعلى كل علاقة، شكر الله له ورزقه الخلة فهو خليل الله.

وحين تجاوز كل مواقف الابتلاء بصبر ورضى، وبالسعي في مراد الله لا مراد نفسه، رزقه الله الإمامة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1].

وبهذه وبغيرها من منازل الوفاء استحق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا الشرف الذي وصفه الله به فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[2].



(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٧.

ميثاق الالتزام

الميثاق لا يؤخذ الا بنية الالتزام به، وتحمل تبعاته والقبول بما يترتب عليه من نتائج.

تأمل قول اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه موسى ولبني إسرائيل حين آتاهم التوراة التي فيها الهدى والنور: قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[(١)].

ومعنى (فخذ ما آتيتك): يقول: **فخذ ما أعطيتك من أمري ونهيي وتمسك به، واعمل به**، ومعنى (خذها بقوة): قال: **بجد واجتهاد**[(٢)] **وعزم على الطاعة**[(٣)].

وذُكِر في شرح (فخذها بقوة) أي: **بجد واجتهاد على إقامتها، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها وهي الأوامر الواجبة، والمستحبة، فإنها أحسنها**[(٤)].

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٤-١٤٥.

(٢) تفسير الطبري.

(٣) تفسير ابن كثير.

(٤) تفسير السعدي.

وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة، لأنه إذا أخذه بضعف النية أداه إلى الفتور[1].

فما الذي جعل غالب بني إسرائيل لا ينتفعون بالتوراة وهي كما وصفها الله اشتملت على مواعظ وأحكام وتشريع مُفصّل محكم من رب العالمين؟!

الجواب: أنهم لم يأخذوها بمسؤولية والتزام، ولم يكونوا جادين في العمل بها، وتعاملوا معها وفق أهوائهم واستخدموها لأغراض الدنيا وكانوا عنها غافلين. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[2].

فأول خطوات الالتزام بحق القرآن أخذ آياته بقوة والتزام بالعمل، وتلقي معانيه بمسؤولية، واحترام الحق الذي فيه. ولا يمكن أن يقوم بالقرآن والسنة إلا رجال ونساء يدركون مسؤولية التعامل مع حكم اللّه وهداه. فكلام اللّه ليس مجرد بديل عن صوت الغناء، أو عادة تتلى في طقوس، إنه دستور فاعل في النفس والسلوك. وحتى تتلقاه النفوس بكفاءة تليق بمقاصده السامية؛ فلابد أن تكون هذه النفوس جادة تتمتع بقناعات متزنة ومهارات فاعلة وتفكير ناضج وسلوك منضبط.

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

الالتزام يكون على ثلاثة مستويات:

١ـ التزام عقلي قلبي، ومجاله القناعات وأعمال القلوب.

٢ـ التزام شخصي، ومجاله العادات والسلوكات.

٣ـ التزام انفعالي، ومجاله سكينة المشاعر وانضباط العواطف.

الالتزام العقلي:

الالتزام العقلي[١] هو التزام إدراكي، ومعناه الإيمان بما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة والإيمان بالغيب، والإيمان بأسماء الله وصفاته.

حين نلتزم عقليًا فنحن نلتزم قلبيًا في اللحظة نفسها دون انفصال، فكل ما ندركه ونؤمن به يجب أن يكون وفقًا لما جاء في القرآن والسنة.

جميع المحن والفتن التي تعرض لها جيل القرآن الأول كانت تبني فيهم إدراكًا، وتختبر إيمانهم بمعطيات الوحي وكيف يعيشون بها ويتعاملون مع الأزمات من خلالها. وحين نلتزم ميثاق أهل القرآن فإننا نلتزم إدراك ما أدركوه، بالصورة التي بها فهموه.

للقلب والعقل أعمال وسلوك كما للجوارح أعمال وسلوك، ولكي يلتزم القلب بما يجب عليه من أعمال كاليقين والخشية

(١) أي أن العقل يلتزم بمدركات الشرع وعقيدته.

والإيمان والإنابة والخشوع، والسكينة فلابد له من زاد يغذيه، ومدرسة تربيه. وفي محراب القرآن تُصقَل القلوب وتترقى في مدارج الالتزام بالعروة الوثقى.

ولنبدأ من حيث بدأ جيل القرآن الأول:

في بداية دعوة النبي ﷺ وفي أولى خطوات السابقين إلى الإسلام كانت أيضًا بداية التلقي والتحمل لآيات القرآن الكريم، وكان أولئك النفر القليل المستضعفون هم أول من شكّل مجتمع القرآن الكريم.

فكيف عالج القرآن الكريم نفوسهم لتتأهل لتحمل مسؤولية الوحي، وتواجه القوة التي تحيط بهم من كل جانب؟

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[١].

في هذه السورة الكريمة يظهر ما يلي:

- امر بقيام الليل (قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا) والغاية منه:

---

(١) سورة المزمل، آية: ١-١١.

- (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) وهو الوحي وما فيه .
- وكذلك من أجل (إن لك في النهار سبحا طويلا) أي عمل كثير .

ومما اعتادت عليه النفوس أنها ترتاح بالليل وتأخذ أكبر قدر من النوم، إذا كان هناك عمل كثير في النهار.

لكن هذه الآيات ترسل رسالة مختلفة، مفادها: إذا أردت تحمّل مسؤولية الوحي (القول الثقيل) والاستعداد لعمل النهار فإن زادك هو محراب القرآن تتلوه وترتله، وهو كفيل بمنحك القوة التي تحتاجها روحك ونفسك وبدنك، لكي تقوم بمسؤولياتك الجسام.

ولقد التزم النبي ﷺ هذا الأمر، والتزمه الصحابة معه، وسجلوا أروع الصور في التزامهم بمقتضى القرآن الكريم وتلقيهم لتعليماته بالقبول والالتزام، وكذلك تحملهم لما يجدونه في سبيله من المشاق والتبعات، والظروف[١]. فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «أفلا أحب أن أكون عبدا شكورًا»[٢].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم أن صلاة الليل كانت مفروضة ثم نُسخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس). فتح الباري (١/٥٥٤).

(٢) متفق عليه.

وكانت حاله حال المحسنين الذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[1] فسرها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: (لم يكن يمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا)[2].

وهذه وصية رسول الله ﷺ لأمته: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد»[3]. إن أهمية قيام الليل بالنسبة لحملة كتاب الله وحملة الرسالة التي جاء بها الوحي، ليس فقط لكونه عبادة عظيمة بل لأنه مدرسة تأهيل وبناء بامتياز.

إن ما يتلقاه حملة القرآن من هداية ونور كفيل بأن يمنحهم الكفاءة النفسية والبدنية، لكي يقوموا بحقه ويؤدوا ما يجب عليهم من خلاله.

في محراب القرآن ستجد أنك تتلقى دروسًا نوعية ونصائح استثنائية، سبق أن تلقاها أصفياء الله وعباده الصالحون الذين آمنوا به، وتلقوا رسالاته باليقين، وتحملوا مسؤولية تلقيهم لكلام الله الذي أنزل عليهم. ولنقف وقفة نرى فيها كيف يعالج القرآن نفوس من تحملوه، وماذا منحهم من نوره وهداه.

---

(١) سورة الذاريات، آية: ١٧.

(٢) تفسير الطبري.

(٣) رواه أحمد وصححه الألباني.

فماذا في القرآن ليعطيه لهؤلاء المؤمنين الذين يتلونه في ليلهم[1]؟

- القرآن كلام رب العالمين ليس فيه باطل وليس فيه دعوة لغير الخير. موزون العبارة محكم المعاني، ينسجم مع النفس فيرتبها، ويتفق مع العقل فينظمه، ليس في كلام اللّه شيء لا داعي له، وليس فيه نقص ولا قصور. إذا سمِعَتْه الأذن ووعاه القلب طابت حياة القلب واستقام فعل الجوارح، من عاش مع كلام اللّه سيكتشف أن جميع قواه الداخلية انتظمت، ومشاعره استقرت، وأفعاله اتزنت، وسيجد أن السكينة والطمأنينة قد عمرت قلبه. فمن تفرقت عليه نفسه أو أحاط به الذهول أو استعجمت عليه المسائل، أو عجز عن استبصار وجهتِه؛ فإن تلاوة القرآن بالليل هي طبّ ذلك وعلاجه.

- القرآن في جملة معانيه يتحدث عن اللّه، من أوله إلى آخره. فموضوعه الرئيس هو اللّه؛ حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأسماؤه الحسنى، وصفاته العلى، وأفعاله الحكيمة، وأقواله التي تمت صدقًا وعدلًا.

فاللّه حين يعرّفنا قوته وقدرته، ونستشعر أنها قوة وقدرة مطلقة؛ فلن يبقى لأية قوة أخرى وزن، ولن تجد أية قدرة

---

(١) من كتاب حسبنا اللّه للمؤلف.

فرصتها لتبهرنا، أو تهددنا، أو تعدنا بالحماية؛ لأن القرآن قد وضعها في مقارنة خاسرة، ولم تعد قوة البشر تملأ العين بعد أن عرفت قلوب المؤمنين أن اللّه هو القوي العزيز، وأنه القاهر فوق عباده، وأنه على كل شيء قدير.

واللّه حين يعرّفنا رحمته ولطفه ورأفته، فلن تحفل نفوسنا بملاذ آخر، ولن ينجح جميع من يدّعون الرحمة أن يقدموا لنا ملاذًا يغني عن رحمة اللّه، وعنايته ولطفه، ورعايته، ومهما كانت أحضان الأمهات دافئة آمنة، ومهما كانت كلمات المحبين لطيفة ناعمة، فإن من عاش مع القرآن ورأى فيه كيف هي رحمة اللّه بالخلق ولطفه بعباده فسوف يفر إلى اللّه وحده.

اللّه حين يقص علينا ولايته للمؤمنين وكفايته ونصرته لهم، فإنه بذلك يجعل المستضعفين أكثر الناس أمانًا. لأنهم يأوون إلى ركن شديد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[١].

حين يحدثنا القرآن عن عفو اللّه ومغفرته وتوبته على عباده، فسوف يشعر العاصي أنه لا يوجد قانون في الدنيا يمكنه منحك عفوًا بلا تبعات ويمنحك غفرانًا يبتلع كل خطاياك مهما عظمت. بل ويفرح بتوبتك وعودتك إليه مثل الذي تجده

(١) سورة محمد، آية: ١١.

في جنب اللّه حين تتوب إليه.فالقرآن كفيل لمن تدبره أن يجعله يعيش في الدنيا بامتياز خاص يتجاوز به كل المتاعب، لأنه سيعرفه باللّه وحين نعرف اللّه سنضع ما سواه في موضعه مهما حاول التعالي.

- في القرآن تسلية عبر قصص الرسل وأحداث الأمم. فمن أروع ما يحدثه قصص القرآن في الذين يتلونه أو يستمعون له؛ (الاندماج) حيث ينساق ذهن السامع مع الحدث وتصوير البيان القرآني حتى يتحد الخيال مع واقع القصة، فكأن السامع يعيش تلك القصة كما عاشها أصحابها. فالاندماج يجعلك تبكي مع يعقوب، وتتأوه مع إبراهيم وتتمنى مع لوط، وتضحك مع سليمان عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أجمعين.

فالحَدَث في القرآن يجعلك تعيش التجربة كمن عاشها وتتعلم منها كمن خرج منها للتو.

ما أروع أن تدخل (الجو) القرآني بأحزانك، وتندمج في قصة يوسف بآلامك وغربتك ودموعك، وتتعلم منها بعمق؛ أن التقوى سبيل التمكين ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[(١)].

ثم تخرج منها وكأنك تخلصت من كل حزنك حين تقرأ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ

---

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.

مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. وبعد كل الآلام وبعد كل الآمال تدفعك القصة إلى نتيجة حتمية لمن انساق مع محتواها، وهي أن النهاية المعتبرة والنتيجة التي تغني عن كل نتيجة؛ هي ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

إنها القصة التي تدعوك لأن تكون أحد أبطال الحلقة الأخيرة مع الذين يدخلون الجنة بما صبروا.

وفي القرآن تندمج مع قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يقول: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[3].

ثم تستفيق على جواب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. فترى أو كأنك ترى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[4]؛ فبالأمس نلتمس مطلق القوة، واليوم نشاهد آثار القوة المطلقة.

أسالك بالله هل هناك مقهور لم تمر به لحظة الضعف هذه، ثم هل يشك مؤمن في أنه سيعيش لحظة النصر

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٠.

(٢) سورة يوسف، آية: ١٠١.

(٣) سورة هود، آية: ٨٠.

(٤) سورة هود، آية: ٨٢.

تلك (التي سيعيش المؤمنون لحظة مثلها) كما عاشوا لحظة الانكسار وسيذوق الظالمون مرارة (موعدهم الصبح) كما ذاقوا متعة (قل تمتعوا في داركم) أهـ.

ما الذي يفسد على حامل القرآن التزامه النفسي باليقينيات؟

الجواب: هو فساد الذائقة حيث يفقد القلب قدرته على تذوق كلمات اللّه، ويفقد معها تذوق كل ما يتعلق بالآخرة. حتى إنّ الإنسان ليستغرب كيف لم يعد لديه الخشوع الذي كان يشعر به حين سماع القرآن، بل إنه قد بدأ يمل من سماعه أو يعاني صعوبة تلاوة ورده الذي كان يتلوه.

الذائقة هي التي تعطينا فرصة التلذذ بما في كلام اللّه من فتوحات وهدى ونور، فعندما نغفل عن قلوبنا، وندع الدنيا تنفرد بهذه القلوب لتغذيها وتتولى تثقيفها وتربيها على ثقافة الاستهلاك والتباهي والهوى والبهرج واللغو والعبث؛ فإن القلوب تعجز عن تذوق المواعظ بل ربما تنفر منها، لأنها لم تعد جاذبة للنفس ولا يتلذذ بها القلب، وهنا نخسر التزامنا النفسي فلا نأخذ القرآن بقوة كما أمرنا.

كيف نحافظ على التزامنا النفسي تجاه القرآن الكريم:

١. ملازمة حلق الذكر والتذكير.

٢. التعبد للّه بتلاوته خاصة في خلوات الليالي.

٣. تأمل معانيه وتتبع كلام من يعيننا على تأمل حكم القرآن وهداياته.

٤. تجنب الإكثار من تتبع الملهيات، أو رموز العبث الذين يُغرقون أذهاننا بالترهات، والتي ولو كانت مباحة لكن كثرتها تفسد ذائقة القلب، ويفسد تبعًا لها إدراكات النفس وقناعاتها.

٥. تتبع أخبار رموز القرآن الكريم تلاوة وتعليمًا وعناية، فإن سيرتهم تلهم النفس وتقيها خطر الانبهار برموز الغواية.

٦. تعلم السنة، والحرص على اتباعها، فإن أكثر الذين يمرقون من القرآن فلا يجاوز تراقيهم؛ إنما دخل الشيطان عليهم من باب هجر السنة والزهد في تعلم العلم الشرعي.

إن تحمّل القرآن الكريم يعني أن نتيح لقلوبنا فرصة تلقي مدركات القرآن وهداياته ومواعظه؛ لتتمتع العقول والقلوب باليقين والإيمان الصحيح والقوة النفسية، التي لا تزعزعها الفتن والشبهات ولا تضعفها.

ومما سبق يتضح أن محراب القرآن كفيل بتأهيل النفوس وتقويتها، ولكن؛ هل كل النفوس سوف تلتزم هذا التأهيل وتقوم به؟.

لذا يجب أن ندرك أن التزامنا النفسي (الإيماني) يحتاج لأنفس لديها التزام شخصي ولياقة شخصية تمكنها من تحمل مسؤولية هذا الكتاب العظيم.

الالتزام الشخصي:

نقصد بالالتزام الشخصي أن يكون لدى حامل القرآن قوة شخصية[1] تمكنه من التحكم في أمرين:

١. عاداته (رغباته)

٢. انفعالاته

فكيف نلتزم في عاداتنا؟

العادات الشخصية هي التصرفات المعتادة التي يفعلها الشخص كلما تعرض لموقف ما، وفي الجدول التالي مثال للعادة السلبية أو الإيجابية التي يمكن أن تنشأ مع المواقف.

الموقف	الحالة	العادة
عمل ينبغي انجازه	+	الإنجاز
	–	التسويف
موعد الاستيقاظ	+	النهوض
	–	زيادة النوم
تناول أكل غير صحي	+	التجنب
	–	الإكثار

(١) قوة الشخصية لا نعني بها القدرة على مواجهة الآخرين بل القدرة على مواجهة الإنسان لهواه. المؤمن القوي لا يضعف أمام نزعات نفسه بل يثبت وهذا ما يمنحه الشجاعة والقدرة على قول الحق وتجنب النفاق ومصالحة الباطل.

ما الذي يمنع الالتزام الشخصي؟

الذي يمنع الفرد من تحمل أي التزام هو أحد أمرين:

الأول: تغير القناعات وهذا يعني أنه حصل تغيير في الإدراك فضعف الالتزام (العقلي القلبي) كما سبق الحديث عنه[١].

الثاني: ضعف القدرات الناتج عن سوء العادات، وهذا يعني العجز الشخصي عن الاستمرار في الطريق الجاد، بسبب ما فيه من مقاومة للرغبات، أو ضبط للانفعالات. وهذا ما نعبر عنه بضعف الالتزام الشخصي.

تساؤلات تساعد على ملاحظة أثر العادات الشخصية في تحقيق النجاح[٢]:

- شخص يملك ذكاء يفوق ذكاء جميع زملائه في الدراسة وكثيرًا ما يتفوق عليهم دراسيًا؛ بعد مرور عدد من السنوات تجد أنه لم يحقق أي نجاح، وأنه (وفقًا للنظرة الدارجة في المجتمع) أصبح فاشلا!!
- شخص محدود الذكاء، وكثيرًا ما يكون موضع سخرية زملائه في الدراسة؛ بعد عدد من السنين يحقق تقدمًا ونجاحًا، ويُعدّ في نظر المجتمع مثالًا للنجاح.

---

(١) صفحة ٤٧.

(٢) سبب التوسع في إيضاح مفهوم العادات وذلك كونها أكثر مهددات الالتزام وكذلك خشية أن يلتبس المفهوم بغيره مما درج في السنة الناس

- رياضي يحقق البطولات وتتنافس الأندية على التعاقد معه، وبعد مدة ينحدر مستواه ويخسر كثيرًا من منافساته، ثم يتخلى عنه الذين كانوا يبحثون عنه، ويخرج من المجال بلا عودة.
- شاب يحقق تقدمًا كبيرًا في حفظ القرآن الكريم، ويُظهر ذكاء في تعلم العلم، وبعد سنوات يخسر جميع ما حفظ، ويعجز حتى عن إتمام التعليم الرسمي الضروري.
- رجل يرث ثروة هائلة ويتولى إدارة عدد من الأنشطة التجارية وبعد فترة ينحدر ماليًا ويخسر كل تلك الثروة ويفلس.

ما السبب المشترك بين جميع هؤلاء؟

الحالة	التفسير الشخصي(١)	الرسالة
طالب يملك ذكاء ثم يخسر دراسته	لم يستطع تحمل جدية الالتزام بمواعيد المدرسة وقوانينها والواجبات	مهما كنت ذكيًا فالعادات السيئة سوف تعطل ميزة الذكاء لديك
شخص محدود الذكاء يحقق تقدمًا ونجاحًا	التزم بكل المهارات الجادة مثل الإنجاز، الإصرار المثابرة، مقاومة هوى نفسه	لا تقلق أنك الأقل ذكاء إذا كنت الأفضل محاولة
رياضي متفوق ثم يخسر مهاراته	لم يستطع التغلب على كسله في التأخر عن تمارين اللياقة، ولم يستطع مقاومة الأغذية التي زادت من وزنه ففقد لياقته الجسمية	اللياقة البدنية كاللياقة النفسية ومن فقد لياقته فقد مهارته

(١) هذا التفسير فقط من جهة التزامه الشخصي، وهناك تفسيرات أخرى لا تناسب المقام.

شاب يحقق تقدما كبيرا في حفظ القرآن الكريم، ثم يتحول به الحال للضياع	اتباع الهوى والرغبات وشهوات النفس جعل متطلبات القرآن الكريم ثقيلة على النفس	حين تحمل القرآن فلابد أن تضع هواك تحت السيطرة
رجل يرث ثروة هائلة ثم يبددها	لا تبقى الثروات في أيدي من لا يجيدون عادات التوفير، والمحاسبة، وقهر النفس عن فوضى الشراء	ثروة النفس قبل ثروة المال

كيف نشكّل عادات الجد ونقوّي التزامنا الشخصي؟

عندما نقول عادات شخصية فنعني بها التصرفات التي تتكرر غالبًا، ولكن العادات لا تبدأ عادات، بل تبدأ سلوكًا عابرًا، ثم مع تكرار التصرف يكتسب السلوك صفة الديمومة بمعنى أنه يصبح هو التصرف التلقائي الذي يبرز أولاً وتميل إليه النفس.

في النفس البشرية نزعتان هما:

الرُشد: ويستمد قوته من قوة العقل الذي يحرص على فعل الصواب، وتحقيق النفع من منظور صحيح.

الغيّ: ويستمد قوته من داعي الهوى والرغبات، والتي تحرص على تحقيق لذة عاجلة دون اعتبار لكونها صوابًا ودون استحضار للضرر المترتب عليها لاحقًا.

فحين يكون أمام الإنسان موقف ويجب عليه أن يتخذ قرارًا فإن داعي الرشد يملي عليه باتجاه، وداعي الغي يملي عليه باتجاه معاكس.

وكل من الرشد، والغي؛ يقدّم مبرراته لما يختار، وغالبًا ما يركّز الرشد والعقل على إيضاح جانب الخطأ والصواب، وإيضاح المنفعة والضرر، لاسيما على المدى البعيد. بينما يركز داعي الهوى على تزيين اللذة العاجلة، ويقدم تأويلات للالتفاف على حجة العقل[1]، ويعرض تطمينات للتخلص من مخاوف سوء العاقبة.

فإذا قاوم الإنسان هواه (وهنا تظهر قوة الشخصية) واتجه مع داعي الحق والخير في نفسه، فإنه يبدأ في اكتساب عادة (الكِياسة، والفطانة) وهي عادة الجد والقوة الشخصية، لتحمل المهام الصعبة، والقدرة على العمل بموجب ما يؤمن به من هدى القرآن ومواعظه. ومع التكرار تُصقَل هذه العادة، وتصبح تلقائية لديه.

وإذا تجاهل الإنسان داعي الحق والخير من داخله، وانصاع لإغراءات الهوى، فقَبِل التأويلات والتسويف، فإنه يبدأ في اكتساب عادة (العَجَز) وهي ضعف الالتزام الشخصي، وعدم القدرة على الثبات على لوازم الوحي وكلام

(١) حجة العقل السليم الذي لا يخالف مقتضى الوحي.

اللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ومع التكرار تتجذر هذه العادة وتصبح مانعة له من كثير من مهارات النجاح. ولا يزال يتمنى الخير، ويعد نفسه بالتغيير، ليبدأ في مواجهة هواه.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[١] كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا[٢] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٣].

فانظر كيف يؤثر تراكم الذنوب في تغيير قدرة النفس على قبول الرشد، ويتسبب في العجز عن فعله. وكيف تكتسب النفس حصانة وقوة ضد الفتن، حينما تبدأ برفضها وردّها منذ البداية، بالحزم، ورد تأويلات الهوى.

وبالنسبة لحامل القرآن والعاملين عليه، فالمباحات ليست مجرد مباحات فحسب، فهم مثل البشر في التمتع بالمباح، ولكن من أراد أن يمتلك لياقة شخصية، وقوة نفسية، فإنه

(١) يعني قاتم اللون جدًا.

(٢) الإناء المقلوب.

(٣) صحيح مسلم ٢٣٩.

مُطالَب بنظام خاص، يمنعه من بعض تلك المباحات، أو ينظم له كيفية التعامل معها.

فكما نشاهد في صالة بناء الأجسام وحمل الأثقال، أن أول ما يتعلمه من يريد النجاح في هذا المجال، هو تنظيم طريقته في الغذاء. ومن ذلك التنظيم أنه يتقبل وبقناعة منذ البداية؛ تجنُّب كثيرًا من الأطعمة التي تمنع جسمه من اكتساب اللياقة، وكذلك يمتنع عن عدد من الممارسات في الحياة، لكي يُبقِي على لياقته، ويستمر في تنمية قدرته على حمل مزيد من الأثقال.

ومما تعارف عليه أصحاب هذه الرياضات أنه لا يمكن الجمع بين حرية الطعام والنوم من جهة، وبين التميّز البدني من جهة أخرى. فعلى اللاعب أن يختار إما قانون المدرب أو قانون (البوفيه المفتوح)(١).

وحين نكون ضمن كوكبة القرآن فإننا يجب أن نختار إما قانون (فخذها بقوة) ونعيد ترتيب رغباتنا، أو قانون (إنما هي حياتنا الدنيا) ونطلق لرغباتنا العنان، فنتخلى عن سباق أهل القرآن، وسباق الفرسان يحتاج إلى خيل مروّضة ومضمّرة(٢).

---

(١) يقصد به الطعام المتاح باستمرار.

(٢) الخيل المضمّرة هي التي يتم تجويعها استعدادا للسباق.

كيف نلتزم في انفعالاتنا؟

نعني بالانفعالات تلك المشاعر التي تصاحب المواقف من غضب أو حزن أو خوف أو نحوها.

انفعال الحزن والخوف سبق الإشارة إليه في الحديث عن الالتزام العقلي حيث يؤدي اليقين والإيمان إلى ضبط شعور الخوف والحزن.

وسيكون تركيزنا على انفعال الغضب نظرا لتأثيره على ثبات النفوس وما يحدثه من مداخل للشيطان التي تُفرّق الإخوة، وتفسد ذات بينهم ثم يؤدي ذلك للإخلال بالتزامات ميثاق القرآن وأخلاق أهله.

توضيح(١):

سبق أن ذكرنا أن التثقيف والمعارف الجيدة والخبرات الإيجابية تصنع التزامًا عقليًا، وكلما حظي الإنسان بخبرات تراكمية أكثر كلما كان إدراكه أقوى. وحين يواجه أي موقف فإنه سيهرع إلى خبراته وقناعاته وقيمه ليعالج الموقف بشكل صحيح، وبقدر ما تسعفه خبراته سيكون رد فعله بحول الله.

---

(١) التوسع في إيضاح علاقة التوتر بالتزامنا الشخصي نظرا لخفاء هذا المفهوم عن الأذهان في معالجة ضبط النفس، وليتمكن القارئ من تكوين تصور ذهني يمكنه من التطبيق.

فهناك حالتان:

١. حالة لشخص يتمتع بمعارف جيدة وخبرات ممتازة وهذا يتوقع أن يكون أكثر كفاءة في مواجهة المواقف.

٢. وحالة شخص قليل الإدراك والخبرات وهذا يُتوقع أن يكون أقل كفاءة في مواجهة المواقف.

وهناك حال ثالثة وهي: حالة شخص يتمتع بمعارف جيدة وخبرات ممتازة، لكنه لم يستطع الاستفادة منها في المواقف، وكلما واجهه موقف اكتشف أن تلك المعارف والخبرات تتطاير عنه وتخذله، ولا يتذكر منها شيئًا إلا بعد فوات الوقت.

ومما يؤدي لذلك حالة الغضب، والتي تحجب عن العقل كل ما لديه من رصيد، فيعالج الموقف كما يعالجه السفهاء والجهلاء والطائشون.

سنشرح الأمر بشكل أبسط:

تخيل أن قائدا كُلِّف بالدفاع عن بلدة معينة ضد بعض العصابات، ولديه ألف جندي بأنواع الأسلحة. ويعسكرون في مكان قريب ويستدعيهم متى شاء، وفي كل مرة يقوم باستدعائهم فإنهم يخرجون من بوابات المعسكر ويتحركون عبر طريق ممهد عرضه عشرين مترًا باتجاه مركز القيادة، ولا يستغرق منهم حمل الأسلحة وتحريك الآليات والمرور عبر الطريق الواسع؛ سوى ٢٠ دقيقة حتى يكونوا جاهزين للدفاع وردع المعتدين الذين

لا يستطيعون الانتصار على الجيش المدرب والمجهّز. ولذلك توقفت الهجمات وهدأت الأمور لفترة طويلة.

وفي مرة من المرات نجحت العصابات في وضع صخور كبيرة وأكوام من الرمل الهائل في الطريق الذي بين القائد والمعسكر، وبعدها هاجمت العصابة تلك البلدة لتستولي عليها .

وحين شعر القائد بالخطر استدعى الجيش (كالمعتاد) وفعلا تحرك ألف جندي بمعداتهم الثقيلة وعرباتهم، ولكنهم بعدما خرجوا من المعسكر تفاجأوا أنه مغلق، وبعد جهد ووقت تمكنوا من فتح ممر عرضه مترين فقط.

ووجدوا أنفسهم عالقين في الطريق المكتظ بالجنود والآليات. ونتيجة للتزاحم على الممر الضيق استغرق وصولهم ساعة كاملة ولم يصل خلالها إلا الأفراد الذين يحملون أسلحة خفيفة فقط. وبقي الآخرٍون ساعة أخرى حتى تمت إزالة العوائق وتوسيع الطريق وفعلا وصلوا بعد ساعتين ولكن المعركة انتهت بهزيمة القائد وخسارة الموقع الذي كانوا يريدون حمايته.

السؤال: هل خسر القائد لأنه لا يملك جيشا وعتادًا؟

أم لأن الجيش مع العتاد عجز عن الوصول بسبب ضيق الطريق؟!!

تأمل أيضًا:

أن وصول الأسلحة الخفيفة أولا لم يكن مفيدًا؟

أن الأسلحة الأكثر فعالية كانت بطيئة الحركة واستغرقت وقتا أطول، واحتاجت مسارًا أوسع.

هذا بالضبط ما يحدث لخبراتنا ومعلوماتنا حين نواجه أي موقف ونتعرض للتوتر. فالتوتر يغلق طريق وصول الخبرات إلى الذهن، وإذا وصلت فإنها تكون خبرات سطحية وغير عميقة. وحين نواجه المواقف ونحن في حالة التوتر فإننا نواجهها بخبرات هزيلة فنرتكب الأخطاء والحماقات.

وبعد أن نستعيد هدوءنا ونتخلص من التوتر؛ تصلنا الخبرات الحكيمة والرشيدة ولكنها تكون متأخرة ولا جدوى من وصولها.

فالتوتر يقطع الطريق بيننا وبين قناعاتنا ومعارفنا وثقافتنا، فنعالج المواقف كما يعالجها عديم الخبرة، أو كما يعالجها السفهاء أحيانًا. مع العلم أننا قضينا عمرًا في تعلم الحكمة، ومهارات التعامل، لكن التوتر جردنا منها بكل بساطة.

إن تحمّل معاني ومواعظ القرآن الكريم يحتاج إلى نفوس حليمة، وأذهان غير متوترة، وقلوب تغشاها السكينة، حتى تتمكن من مواجهة الذعر والاستفزاز بحكمة ورشد(١).

---

(١) لمزيد من الوعي بأهمية السكينة في حسن التعامل مع المفاجآت والفواجع، والاستفزاز يمكن الاطلاع عليها في كتاب (حسبنا الله) للمؤلف.

السكينة حالة من الطمأنينة، تمنع سوء الارتجال وتساعد القلب أن يستجمع قواه، وتمكنه من الاستفادة من رصيد اليقين، والحكمة التي تلقاها عبر السنين. فتقطع الطريق على إبليس الذي يسعى للدفع بنا نحو التوتر، ليسهل عليه قيادتنا قبل أن نستفيق.

ولهذا نجد أننا نسمع كثيرًا عن أفكار وحلول مثالية للتعامل مع الآخرين، ونُعجَب بها ونتداولها مقتنعين بصحتها، ولكن المفاجأة أنها تُغيَّب عنا حين نتعرض لأي موقف متأزم، أو نسمع كلمة جارحة، أو نفهم أمرًا ما بطريقة خاطئة.

كيف سنستفيد من حكمة القرآن والسنة؛ إذا كنا سنفقد تلك الحكمة عند أول معركة مع الغضب؟ أو الكِبْر، أو الغرور، أو سوء الظن.

لذا فإن وعينا بانفعالاتنا وملاحظة بدء حالة التوتر؛ مطلب شخصي للاستفادة من معطيات الوحي في حالة التأزم.

كيف نتجنب التوتر؟

إذا كان التوتر يلغي ميزة الوعي والخبرة خلال التعامل مع المواقف الضاغطة؛ فمن المهم معرفة كيفية حدوث التوتر، وكيف نتجنبه؟

كيف تنطلق شرارة التوتر، وكيف نتجنبها؟[1]

إذا واجه الإنسان موقفًا ما، أو رآه أو سمعه أو عاشه، فإنه يتعرض لمثير خارجي يتسبب في تحريك انفعالاته،

والانفعالات التي تُثار من خلال الموقف هي نتيجة تفسيرنا للموقف وطريقة فهمنا له.

فالحزن أو الخوف، أو الغضب والتوتر لا تحصل بسبب المواقف بشكل مستقل، بل بسبب طريقة نظرتنا لتلك المواقف وتفسيرنا لها.

فتجد موقفًا ما، يتسبب في غضب شخص، وحين يتعرض له شخص آخر فإنه لا يغضب.

نتيجة لهذه المقدمة: فإن شرارة التوتر تبدأ من طريقتنا في تفسير وتحليل المواقف، وإذا كانت لدينا ثقافة خاطئة أو عادات ذهنية سيئة مثل الشك، أو سوء الظن أو عادات نفسية سلبية مثل الكبرياء أو الحسد، فإننا سنكون مرشحين بقوة للتعرض للتوتر في أغلب المواقف.

وعلى هذا فإن أهم خطوة في تجنب التوتر هو تربية النفس على مهارات حسن الظن، وحسن تأويل المواقف بشكل مريح للنفس، وفيما يلي أبرز خطوات التعامل مع التوتر واكتساب الحلم[2].

---

(١) جميع ما يذكر في هذه الفقرة لن يكون مفيدًا إذا لم يُطبّق، فلا توجد قيمة لأي حل لا يتم تطبيقه.

(٢) لا قيمة لهذه الخطوات ما لم تتحول إلى عمل من الآن.

أولًا/ خطوة بنائية: بناء الشخصية الحليمة

وهي تزويد النفس بالمعارف والثقافات التي تشيع خلق السماحة، والتقبل، والتواضع، وتوقع الخير، وحسن الظن، وكل ما يزيد من قيمة الأخوة ويعزز أخلاق التعامل.

وذلك يكون عبر مسيرة الحياة وكلما ضعفت هذه الثقافة في النفس فعلى حامل القرآن معاودة تذكير نفسه بها.

ثانيًا/ خطوة علاجية: التخلص من الطبيعة المتوترة، وذلك بما يلي:

١. ملاحظة مواقف التوتر التي حدثت، وإعادة فهمها بشكل مريح للنفس حتى (يتبرمج) الذهن على حسن تفسير المواقف، وكذلك يصبح لدى الإنسان قدرة تلقائية على نقد المواقف المتوترة، وإذا أصبح مع التكرار تلقائيًا فإنه يساعد في احتواء المواقف القادمة.

٢. قراءة أو استماع أو مشاهدة مادة أو عدة مواد لتثقيف النفس، كيف تتعامل مع الغضب، وكيف تحسن تفسير وإدراك الحياة من حولنا.

٣. ملاحظة سلوك الناس الذين يتمتعون بالحلم ومحاولة تقليدهم، وقراءة أخبار الحكماء والحلماء وخاصة سيرة النبي محمد ﷺ.

٤. مقاومة التفسيرات السلبية التي تطلقها النفس من الداخل والرد عليها فورًا، من خلال أيّة إجابة تنقضها وتقلل من تأثيرها.

٥. اعتزال متابعة أيّة وسيلة تثقيف تثير النعرات أو الكبرياء أو تثير الانتقام.

٦. تعزيز النفس كلما حققت تقدمًا، ووصفها بالحِلْم لاكتساب هويتها الجديدة.

٧. التدرب على الحِلْم وحسن التفسير في مواقفٍ سهلة لا تثير الغضب بقوة، وذلك لتأهيل النفس لمواجهة مواقف أكثر ضغطًا.

ثالثًا/ خطوة موقفية:

والمقصود بها أثناء موقف الغضب كيف نتصرف؟

١. اتباع السنة في حال الغضب .

أ. بالتعوذ من الشيطان: فعن سليمان بن صرد قال: استبَّ رجلان عند النَّبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضبًا قد احمرَّ وجهه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنِّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[١].

(١) البخاري ومسلم.

ب. السكوت، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللّه ﷺ: «علِّموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضبت فاسكت، وإذا غضبت فاسكت وإذا غضبت فاسكت»[1].

ج. تغيير (الوضعية) لما هو أقل استثارة فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[2].

وقال ﷺ: «ألا إنَّ الغضب جمرةٌ في قلب ابن آدم، أفما رأيتُم إلى حُمرة عينيه، وانتفاخِ أوداجه؟!»[3]؛ والمقصود الأعظم من التصاقه بالأَرض هو عدم الإقدام على فعل شيء فيلتصق بالأرض تحقيقًا للتوقف والسكون.

٢. تجاهل ما يتم سماعه من العبارات المثيرة التي تولد التوتر، وذلك بعدم التعمق في معناها السلبي، وبمجرد سماعها أو ورودها على الذهن فيبادر الإنسان للتسبيح، لأنه يبطل مفعولها السلبي ويمنع توليد شرارة التوتر. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح .

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الترمذي/ ٢١٩١

(٤) سورة الحجر، آية: ٩٧-٩٨.

٣. الوضوء، حين يعتري الإنسان غضب فإنه يهرع للوضوء ليطفئ نار الغضب الشيطانية.

٤. مغادرة المكان ومحاولة عدم استرجاع أو تذكر أي شيء مثير.

ملاحظة: يقول البعض كيف أفسر المواقف إيجابيًا وأنا متأكد تمامًا أن ما حدث أو ما سمعته هو سلبي. والشخص لا يستحق أن أحسن الظن به؟

الجواب: عندما نفسر المواقف السلبية بشكل إيجابي مريح للنفس فإننا لا نقدم خدمة للطرف الآخر، بل نقدم خدمة لأنفسنا، لأن التفسير السلبي سيحرمنا خبراتنا وسوف نعالج المواقف بدون تلك الخبرات، وربما يكون الطرف الآخر أكثر هدوءًا فيدير الموقف بفاعلية ويحقق مكاسب إضافية، بينما نحن (تحت وطأة التوتر)نرتكب أخطاء جديدة تفقدنا حقوقنا. وإذا كنا نعتقد أن هناك أناسًا لا يستحقون الحِلْم عليهم فهذا يعني أننا نحن أيضًا قد لا نستحق الحكمة في مواجهة ما يؤذينا.

وهناك فرق كبير بين الشدة عندما نكون (داخليًا) في هدوء تام وسكينة، وبين الشدة التي تنتج عن فقدان السيطرة على انفعالاتنا.

فإذا كنت متوترًا فكل إجراء تتخذه غير التراجع والسكون سيكون إجراءً خطيرًا بالنسبة لك.

وجود الغضب في حياتنا ليس مشكلة، إنما المشكلة هي عدم السيطرة عليه. فالحكماء والحلماء والعظماء يغضبون، لكنهم يحسنون إدارة غضبهم.

خلاصة:

ميثاق الالتزام يعني:

- التزام معرفي وإدراكي، تنتج عنه قناعات وقيم راسخة.
- التزام عادات، تنتج عنها جدية في المواقف والاختيارات.
- التزام انفعالي تنتج عنه سكينة واتزان في المشاعر.



ميثاق الإحسان

كثيرا ما يذكر الإحسان عند الحديث عن الاتقان، والإحسان باختصار عبارة عن زيادة الحسّ الرقابي واستشعار علم اللّه ورؤيته للعبد، مما يدفعه لإحسان كلّ عمل يراه اللّه ويعلمه. وهذا يعني أنه لا يوجد عمل يمكننا فعله خارج علم اللّه، ومن هنا ولنكون محسنين فإننا سنجوّد عمل القلب كما نجوّد عمل الجوارح.

ولنبدأ من قول اللّه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[1].

حين قالت الفتاة عن موسى أنه قوي أمين، سألها أبوها: وكيف عرفتِ؟ فأخبرته أن قوّته ظهرت في قدرته على رفع الصخرة عن البئر والسقي بقوة وسرعة، وأمانته ظهرت حين غض بصره عنها.

ومن هنا نلاحظ أن القوة قدرة على العمل، والأمانة مراقبة اللّه في العمل.

ولكل مهنة وفنٍ نصيبها من القوة والأمانة؟

---

(١) سورة القصص، آية: ٢٦.

فقوة الكاتب الصحفي مثلًا: في امتلاك قدرات الكتابة وفنونها ومهاراتها بجودة عالية، والأمانة في استخدام هذه القدرات بشكل صحيح وفق نظام الأخلاق والدين.

وقوة قارئ القرآن: في إتقان تلاوته وأحكامها وفنونها، ومهارات الترتيل.

وأمانته: في توظيف ذلك فيما يليق بالقرآن شرعًا.

قوة معلم القرآن الكريم: في إتقان علوم القرآن التي لا يُعذر المعلم بعدم إتقانها، واتقان فنون التعليم، وفنون إدارة الطلاب، وفنون تربيتهم على آداب الطلب، ومهارات التعامل مع طبيعة هذه المهمة، ومشكلاتها الشائعة.

أما أمانته: فهي في السعي لاكتساب القوة التي ذكرناها فإن المعلم إذا عرف أن لديه نقصًا ما في مهاراته (وكان بإمكانه إكمال هذا النقص) ولم يفعل فهذا خلل في الأمانة.

ومن الأمانة: العناية بحسن التعليم، والقيام بكل ما يوفي للطالب حقه في الحصول على فرصته لاكتساب المعرفة، والتوجيه.

وفي كل دور من أدوار العمل التي يقوم بها خدام كتاب الله من تخطيط، وإدارة، وتوجيه، وتنمية وتطوير؛ في كل من هذه الأدوار قدر واجب من القوة يجب اكتسابه وتعلمه وإتقانه،

ولكل من هذه الأدوار صورة من الأداء تبين وجه الأمانة فيه. فلكل مهمة حظها من الأمانة وحظها من الغش. وأهل كل فن يعرفون الأداء النصوح والأداء المغشوش.

حين نجاهد أنفسنا على الإحسان في العمل كأننا نرى اللّه، والعمل ونحن نلاحظ أنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يرانا؛ فلن نقبل بأن نمارس الأعمال بغير مهارة متقنة، وهذا إحسان قوتنا (إتقان)، ولن نقبل أن نتقن الأعمال لنحقق مكاسب غير مشروعة، وهذه إحسان أمانتنا (مراقبة).

التأويل والحس الرقابي:

الأمانة ماهي إلا حسٌّ رقابي، يوجَد في نفوس الفضلاء، فيدفعهم هذا الحس إلى أن يمارسوا على أنفسهم رقابة داخلية صارمة، ومحاسبة مستمرة.

وحتى لا تفقد نفوسنا هذا الحس الرقابي، لا بد من القيام بصيانة مستمرة لقلوبنا ونوايانا، وقناعاتنا. لأنه إذا تغيرت قناعاتنا ودخلت عليها التأويلات والتبريرات، فإن هذا الحس الرقابي يضعف ويقل تأثيره فتضعف فاعلية الضبط الذاتي، ويقل جهد المحاسبة من نفوسنا، فنقبل بتمرير ما لا يتفق مع الفضيلة، ليس لأننا لسنا أمناء ولكن لأننا من حيث لا نشعر، وربما بسبب ظروف وعوائق (غير قاهرة) وقعنا تحت تأثير مبررات أو تأويلات شخصية سهّلت على

ضمائرنا قبول الأداء الأقل إتقانًا، وخدّرت الحس الرقابي في نفوسنا، أو قللت من فاعليته.

إن حملة كتاب اللّه، والمنتسبين له ملزمون بقدر إضافي من الرقابة الذاتية، ولا يسعهم في هذا ما يسع الناس، إنهم في حياة الناس بمثابة المثل العليا والرموز الناصعة، والنموذج المحتذى في السلوك الظاهر والباطن. وليس كثيرًا أن يكون واجبهم أكثر من غيرهم من مجاهدة النفس للإحسان، واستحضار رقابة اللّه ونظره لهم وعلمه بما في نفوسهم.

نعم لن يكون حملة القرآن وخدامه ملائكة ولا أنبياء، بل هم بشر يعتريهم ما يعتري البشر، لكن طريق القرآن ليس طريق غثاء، بل طريق تمحيص، وتحمّل، ومسؤولية، وطريق يقف في مقدمته الملائكة والرسل الكرام، ولهذا فإن روح القداسة التي تسري في هذا الطريق تفرض على سالكيه قدرًا عاليًا من الطهر والنقاء. لا يتجاهل بشريتهم لكنه لا يسمح بالدنس بحجة تلك السمة البشرية.

ولأن الكمال محال، فقد يسّر اللّه لنا طريق المجاهدة وجعله مقدمة لعونه وهداه، فإذا غلبتنا نفوسنا فإن باب التوبة والمجاهدة يكفل للصادقين نهاية تليق بصدقهم وحرصهم على أن يؤدوا ما عليهم أداء المحسنين. قال اللّه

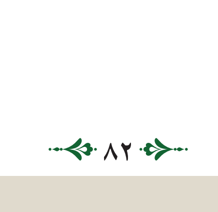
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فكلما تفرقنا في دروب الحياة، وعصفت بنا أمواجها، فعلينا مراجعة ميثاق الإحسان إتقانًا ومراقبة، ومجاهدة النفس في البقاء على عهد اللّٰه وميثاقه. ففي كل مجال من مجالات الحياة يجب أن يكون لحامل القرآن صورة مشرقة من الأداء الذي يجعله رمزًا حيًّا ونموذجًا مشاهدًا للقوي الأمين.

وكلما خبت في نفوسنا تلك اللذة التي نجدها في التزامنا بعهد القرآن وميثاقه، هرعنا إلى تلاوته في هدأة الليل ليشفي صدورنا، ويجبر كسر نفوسنا، ويعيد إصلاح قلوبنا، ويمنحنا قوة جديدة نواجه بها أمواج المتاعب ورياح الفتن.



(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.



ميثاق الأخوة

الأُخُوّة رابطة وثيقة، وثّقها القرآن وقوّى رابطتها بين عموم المؤمنين، وهي بين أهل القرآن أكثر قوة، وأقوى آصرة.

فحين دخل جيل القرآن الأول إلى الإسلام دخلوا في اللحظة نفسها إلى دائرة جامعة دمجت كل الدوائر وهيمنت على كل الروابط.

وحين هاجر جيل القرآن الأول من مكة إلى المدينة حدثت أعظم عملية تآخي عرفها التاريخ، فقد كان ينزل المهاجر على أخٍ له من الأنصار فيشاركه بيته وطعامه وشرابه ويتقاسمان الفرص والتحديات كما يتقاسمان اللقمة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ولا توجد صورة للعلاقة بين المؤمنين غير صورة الأخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]؛ فعلاقة المؤمنين هي علاقة أخوّة وكل التعاملات التي تحدث بينهم تحدث على أرض الأخوة وقانونها الذي شرعه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وفيه تعالى قامت تلك الرابطة.

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

حين تكون فردًا في مجتمع الإسلام فأنت أخ ولك إخوة، أنت أخ عليك واجب نحو إخوتك، سَنّه الإسلام وأوجبه عليك، كما أوجب على غيرك القيام بحق أخوّتك.

فالأخوّة رابطة شرعية، وأصلها أنها في اللّه، وهذا يعني أن كل ما نبذله تحت شعار الأخوة لا نبذله إلا لتحقيق مراد اللّه، وقيامًا بحق الإيمان به؛ إذ لا يوجد قوة تمنح الأخوة كل هذه الرابطة والميزة سوى قوة الإيمان باللّه، ففيه الحب، وفيه البغض، وفيه تعالى الوصل والقطع.

الأخوة ميدان قيام الدين

للأخوة جمال وجاذبية خاصة في سن الشباب، وهذه الهالة والجاذبية والمشاعر الجياشة التي تتولد للوهلة الأولى بين الشباب، تجعلهم يظنون أن هذه هي الأخوة التي يريدها الشرع، ويحث عليها فقط. والحقيقة أن الأخوة ميثاق بين المؤمنين، وهذا الميثاق إنما غلّظ الشرع فيه وعظم شأنه لأن جميع شعائر الدين وأخلاق الإسلام لا تستقيم وتظهر إلا به. فقد روى أبو الدرداء عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[١]، وروى الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

---

(١) صحيح سنن أبي داود.

وعنه ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[1]؛ فالأخوة ليست خيارًا بقدر ماهي ضرورة شرعية، لبقاء مجتمع الإسلام وقيام الشعائر فيهم، وما عُطّلت الشعائر وقُطّعت الأرحام، وتنازع الناس في الحق، وبغى بعضهم على بعض، إلا حين اعتمد الناس روابط بديلة عن رابطة الدين والإيمان، ففرقت الناس وخالفت بين القلوب، فحوّل السفهاء القرآن والسنة وسيلة لتقوية الخلاف والتنازع، وسلاحًا للمقارعة والجدل، بدلًا من كونه رابطة تجتمع عليها القلوب.

أخوّتنا في الميزان

ما أجمل شعارات وعبارات الأخوة لكنها تتكشف عند المحكّات الصعبة. فحين يدب الخلاف، وتتكون في النفوس الضغائن، يصبح حامل القرآن على المحك بين الانصياع لنداء الأخوّة الذي كثيرًا ما كان يردد أنها أخوّة في الله، وبين نداء الهوى وحظوظ النفس، والضغائن.

بكل بساطة: علينا ألا نغالط أنفسنا، وأن نواجه ضمائرنا بالحقيقة التي هي معيار وميزان لأخوتنا. وذلك بطرح هذه الأسئلة:

١. هل سلوكك (القلبي، واللفظي، والفعلي) يخضع لقانون تفاضل غير قانون التقوى؟

---

(١) رواه أبو داود.

٢. هل لديك امتيازات اجتماعية تمنحها لنفسك لا يقرّها القرآن الكريم وصحيح السنة؟

٣. هل تجد صعوبة في تقبل الخلاف مع فئة من المؤمنين بينما تتقبله من غيرهم لاعتبارات شخصية أو نفسية أو معايير غير شرعية.

٤. حين تدع شيئًا مما تتوقع أنه حق لك، ويُقال لك دعه للّه الذي فيه تآخينا، هل تشعر بالغبن؟

إن معادلة الأخوة ليست معادلة بين طرفين هما (أنا، وأنت) بل معادلة بين كل منا ومراد اللّه منه. فالأخوة أداء، أما الجزاء فنستوفيه من الذي فيه تآخينا، ولأجله نحب ونبغض. فكل حب وكل بغض، يداخله شيء من حظوظ النفس فلا ينبغي أن نصفه بأنه حب في اللّه أو بغض في اللّه، فليس من البغض في اللّه أن نحدد مسبقًا من سوف نبغضهم، ثم ننتظر لحظة وقوعهم في الخطأ، فنتعلّق بمبدأ الحب والبغض في اللّه لكي نصبّ مشاعرنا السلبية من خلالها، ونعتبر ذلك بغضًا في اللّه!![1]

ليس من اللائق بحَمَلة القرآن والعاملين على خدمته أن

(١) تسمع كثيرا من يقول: فلان أنا أبغضه في اللّه، لأنه فعل وفعل!! بينما هناك آخرون يفعلون فعلًا مماثلًا أو ربما أشد ولم نسمع أحدًا يقول أبغضه في اللّه.

يستمدوا ميزان أخوتهم ومحبتهم من غير الوحي[١]، الذي حفظوه، وعُرفوا به.

الأخوة منزلة عظيمة

روى الإمام أحمد عنه ﷺ أنه قال: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ»[٢]، وروي أيضًا بسند صحيح قول اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتزاورين في، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ، ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ»، وعنه ﷺ قال: «من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا في اللّه»[٣].

وعن عمر بن الخطاب عنه ﷺ أنه قال[٤]: «إن من عباد اللّه عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا بنور اللّه من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٥].

وإذا كان للأخوة كل هذه الأهمية، وكل هذا الفضل فلا

---

(١) يمثّل ذلك كل الوحي، كتابا وسنة.

(٢) صحيح رواه الإمام أحمد.

(٣) حسن رواه الحاكم.

(٤) صحيح أبي داود.

(٥) سورة يونس، آية: ٦٢.

تستكثر ما تبذله فيها، ولا تتحسر على ما تفقده في سبيل الإبقاء عليها. وعليك أن تسعى ليكون لك إخوة لا يربطك بهم غير السعي لتحقيق مراد اللّه، فلعلك تحظى بالأمن يوم يخاف الناس.

مفسدات الأخوة:

الأخوة رباط مقدس ولهذا يجب العناية بنقائها وصفائها من المفسدات مثل:

١. نسيان عداوة إبليس: قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١]؛ فجُهد إبليس في إفساد الأخوة كبير، لما يعلمه من الشر الذي ينفتح على الناس حين يفقدونها. ولذلك فإن نسيان عدائه يعني أننا سنستبدلها بعداوة بيننا، وسننسى حرصه على إفساد الأخوة وسنخضع لما تمليه علينا وساوسه الخبيثة. وإذا أردت أن تتعامل مع إخْوتِك في حال الاختلاف دون التفريط في عرى الأخوة فاسأل نفسك سؤالين:

أ. لو خرج الشيطان من هذا الخلاف كيف سيكون موقف أخي؟ وكيف سأجد ما في نفسي نحوه؟؛ هذ السؤال سيعينك على توجيه ضغائنك إلى العدو الحقيقي وهو إبليس.

ب. ما الأحب إلى اللّه مما أفعله أو أقوم به؟ وماذا

---

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

لو سألت رسول الله ﷺ؟ فبم سينصحني؟ ولو أن صحابيًا من العشرة المبشرين بالجنة في مكاني وهو أفضل قدرًا مني وحقه أعظم من حقي؛ كيف سيتعامل مع هذا الخلاف؟

٢. مما يفسد الأخوة طغيان قوانين الدنيا: وتحكّم معاييرها في النفس مثل معيار الغلبة والهزيمة أو الربح والخسارة، أو الأفضل والأسوأ، لأن هذه القوانين في معايير أهل الدنيا لا تتفق غالبًا مع قوانين الأخوة التي تعتبر العفو انتصارًا، والإيثار ربحًا، والتقوى خير من كل ميزة أخرى.

٣. سوء الظن: لأن سوء الظن يجعل الإنسان جاهزًا لسوء الفعل.

٤. الغيبة: لأنها تشوّه صورة الأخ عند إخوانه.

٥. النميمة: لأنها تنقل السوء وتفسد الظنون.

٦. التجسس: لأنه يكشف العورات، ويظهر العثرات.

٧. الكِبْر: لأنه يمنع قبول الحق، ويصعِّب على النفس تقبل أخوة الضعفاء.

٨. كثرة المزاح: لأنه يوغل الصدور ويسقط الاحترام، خاصة إذا تضمن سخرية مبنية على عرق أو جنس، أو نقص

٩. قلة التواصي بالحق: لأنه يُنسي الآخرة ويُضعف قيم الأخوة وأخلاقها.

١٠. العزوف عن تزكية النفس بالطاعات والمواعظ: لأن العزوف عن المزكّيات يجعل القلوب قاسية، والنفوس موحشة.



ميثاق الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

ثبات المؤمنين على إيمانهم يحتاج إلى:

- شيوع الحق بالتواصي به حتى يُعلَم، والنهي عن المنكر حتى لا يشيع الباطل.
- الصبر على الحق، وما تتحمله النفس في سبيله، والصبر عن مغريات الباطل وما تعانيه النفوس في ردّه ومعالجته.

ما يعترض أهل القرآن في سبيل قيامهم بحق هذا الكتاب العظيم وما تلاه من الحكمة؛ أعظم مما يعترض غيرهم من الناس.

فهم يعانون حمل رسالتهم، وحمل أعباء حياتهم، وحمل ما يعترضهم في الحياة من ظروف وعقبات وأمراض وفقر وغربة ونحوها.

ولا يمكن القيام بالمسؤولية والاستمرار في حملها بكفاءة، والثبات على طريق أهل القرآن من غير زاد تتقوى به النفس، كزاد الصبر.

---

(١) سورة العصر، آية: ١-٣.

الصبر يا إخوتي؛ قوة نفسية وعملية، تمنحنا فرصة أطول للبقاء على الميثاق حتى نبلغ نهاية الرحلة بعون اللّٰه.

الصبر قيمة ومهارة:

قيمة: باعتبار ما فيه من مكونات إيمانية مثل حسن الظن باللّٰه وصدق التوكل عليه، وما فيه من قناعات تساعد على تغذية النفس بالمثبتات، وتعينها لتتلذذ بانتظار الفرج، فحين تدخل اللذة في شيئ فلا معنى حينها لطول الزمن، فالمستمتع لا يحس بالزمن، ولا يملّ من الانتظار. لأن الملل والضجر واستطالة الزمن من أقوى أسباب تفتيت الصمود.

ومهارة: باعتبار ما يلزم له من قوة شخصية، وتحكم في الرغبات والانفعالات، وضبط لأحاديث النفس (الداخلية) التي تجهض رصيد الصبر، ثم باعتبار ما فيه من تدابير إجرائية تساعد على تقليل حجم المعاناة.

التواصي بالحق والصبر:

التواصي بالصبر له قوة فاعلة في الثبات على الحق، وما ذكره اللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سياق بيان عدم الخسران في سورة العصر إلا لما فيه من قوة عجيبة في تماسك الجماعة المؤمنة وتماسك نفوس أفرادها.

التواصي هو أن يشيع بين أهل القرآن التذكير بما يزيد من تعلق النفوس بمبادئها ويعلقها بموعود ربها ومن ذلك:

١. إشاعة أخبار الرسل الكرام وأتباعهم من الصابرين، لأن ذلك يصنع في الأذهان نماذج وقدوات تحيي سنة الاقتداء، وتصنع لذة ملهمة تقاوم آلام ومشقة الطريق.

٢. التذكير بالانتماء للأمة الكبرى منذ آدم حتى مبعث النبي محمد ﷺ ومن تبعه بإحسان ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[١]؛ لأن هذا يخفف الغربة، والشعور بالقلة أمام كثرة الباطل.

٣. احياء معاني انتظار الغيب وما وعد الله به من آمن به وصَبَر في انتظاره موقنًا به، لأن هذا يُحيل نظر العبد من تأمل سوء واقعه إلى تأمل حسن ما ينتظره، فيتسلى[٢] ويتقوى به حتى يقطع مراحل الخطر، ويتجاوزها.

٤. التذكير بما وعد به النبي ﷺ صحابته، جزاء صبرهم وقبولهم بالواقع الذي فيه أثَرة عليهم: «إنكم ستلقون بعدي أثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[٣]، وهذا يحرك الحنين للقياه ﷺ. فلا تلتفت النفوس للوراء.

٥. إحياء الاعتزاز بشعائر الدين وشرف حَمل القرآن[٤].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٢.

(٢) الإيمان بالغيب تسلية بمعنى مواساة وبلسم للروح لأنه حق ... الخ حق نؤمن به وفي هذا الإيمان مواساة للنفوس وعزيمة لها.

(٣) متفق عليه.

(٤) سبق بيانه في ميثاق الشرف.

فكل تراجع يُحدثه الإنسان عن أي مبدأ فإن من أبرز أسبابه انخفاض الشعور بالتميز بذلك المبدأ. فمتى ما بدأ شعور الخجل أو النقص يرتبط بامتثال قيم القرآن، فإن الاعتزاز يبدأ في النقص تبعًا لذلك، ويبدأ الإنسان الذي نقص اعتزازه بالحق في البحث عن أفعال (متراخية) يُلمّع بها نفسه عند من يرى أنهم ينتقصونه، ليتقبلوه، ثم لا يزال كذلك حتى يصعب عليه الصبر على مبادئه. وربما انسلخ من خير كثير أو ابتلي بالنفاق وهو لا يشعر.

٦. التواصي بطلب الهدى من الله. ففي الحديث القدسي يقول الله جَلَّ وَعَلَا: «يا عبادي كلكم ضالّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»[1]؛ فطلب الهداية من الله يقوي الشعور بالافتقار إليه، ويلغي العُجب، وويمنع الاعتداد بالنفس حين يرى أنه على هدى وغيره على ضلال، فطالب الهداية من الله أكثر ثباتًا وصبرًا على الحق.

٧. التذكير بما يعزّز حسن الظن بالله، وولايته للصالحين. فما تحمل الصابرون ما هم فيه من عناء وشدة بمثل استحضارهم معيّة الله وقربه وولايته لهم، فيسعون بذلك إلى زيادة الإيمان، والإحسان ليحظوا بالولاية والعناية والكفالة. وكذلك فإن استشعار الكفالة يلغي

---

(١) رواه مسلم.

وساوس النفس، وإرجاف الشيطان وحزبه، فلا يهتز صبر الصابرين.

٨. التذكير بمنازل العبودية ومن أبرزها: التوحيد والتوكل على الله والتفويض، والتوبة[١]، وهذه المنازل تقطع الطريق على خواطر السوء، التي تُنهك الذهن بكثرتها، والقلب بما فيها من التشكيك، وكلما عظم توكل حامل القرآن كلما هان عليه ما يخشاه.

٩. زيادة الوعي بحقيقة الدنيا، وما تضخه مستجداتها من فتن، وتعزيز ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر ومقتضياته. فلا يوجد في ثقافة الفناء والغرور ما يغذي الصبر كما تغذيه الآخرة بثقافة البقاء وحسن المنقلب، فالصبر يكتسب قيمته من جمال نهايته، والآخرة هي موعد المجازاة الكاملة. (قال السحرة لفرعون إذ توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[٢]، يعني بالانقلاب إلى الله، الرجوع إليه والمصير)[٣].

١٠. إشاعة كل ما يحيي الشعور بالأمل، ويزيد اليقين، ويمنع

---

(١) تُلخص هذه المنازل من كتاب مدارج السالكين أو مختصراته مثل كتاب الإكسير، المطبوع أو الصوتي.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٢٥.

(٣) تفسير الطبري.

اليأس، والتشاؤم، فالأمل يجعل الذهن يركز على روعة المأمول وينصرف عن تركيز الشعور بمرارة الواقع، كما أن الأمل يُبرز نهاية الألم فلا تغيب عن الذهن، ومهمة إبليس دائمًا هي محاولة عكس هذه المعادلة. فيعمل على ما يركّز ذهن العبد على مرارة الواقع، ويلغي من ذهنه إمكانية النهاية، وإشعاره بأنه في ورطة ليقبل بعد ذلك بقيادة إبليس له لينقذه، وليس له بمنقذ.

١١. الاهتمام بمواعظ التزكية التي تُعين القلوب على قبول الحق والتلذذ به. فتزكية النفس بالخشية والرجاء، والمحبة، تُسهّل علينا الانتفاع بما نتواصى به من حق وصبر.

١٢. التواصي بإقامة الصلاة فهي من العواصم التي تزيد من صبر المؤمن في مواجهة القواصم.لأنها معراج القلوب إلى ربها[١]، وهي وصية الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لرسوله في الكربات. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٢].

١٣. إشاعة التقوى لأنه مما ييسر الدروب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٣]، ويفرّج الكروب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ

(١) يراجع هذا المعنى في كتاب (حسبنا الله) للمؤلف.

(٢) سورة البقرة، آية: ٤٥.

(٣) سورة الطلاق، آية: ٤.

مَخۡرَجٗا﴾[1]، ويكفّر الذنوب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[2].

وما تراخى بعض أهل الإيمان، وتراجع بعض أهل الوفاء إلا حين ضعف التواصي، وقل التناصح، إن جهد إبليس على أهل القرآن أعظم من جهده على غيرهم، لذا وجب أن يكون التناصح والتواصي والتثبيت مشاعاً بينهم حتى تقوى النفوس وتستيقظ الهمم، وتتفطن الأذهان، وتبطل وساوس إبليس وتأويلات جند إبليس.

يا حامل القرآن لا تغلق عن قلبك باب سماع الموعظة، ولا تحرم نفسك مما يزكيها، ولا تجفوا من يناصحك، ولا تنفرد بالرأي في مواجهة الفتن. وكلما قاومَت نفسُك صوت الناصحين فأطّرها بالصبر، واعلم أن إغلاق باب النصيحة يعني فتح باب الوسوسة، والخيار لك. فإما أن تسمع الذكرى وعهد اللّٰه (ولقد عهدنا إلى آدم) أو تسمع الإغراء (فدلاهما بغرور) واعلم أن إبليس عدو الإنسان منذ اللحظة الأولى ولا زال. فأقبل على التوبة (فتلقى آدم من ربه كلمات) واستمع لكلام الرب وعهده لك، ولمن يُذكّرونك بكلام ربك. لعلك تحظى بـ (فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم).

---

(١) سورة الطلاق، آية: ٢.

(٢) سورة الطلاق، آية: ٥.

الصبر عُدّة للثبات وعُدّة للأزمات

الصبر له مكونات تجعله قويًا وجميلًا، فهو إيمان، وانتظار، ومعالجة:

١. **إيمان:** بمعنى الصبر بالله ولله ومع الله[١].

- بالله: أي أن المبتلى يسأل الله أن يفرغ عليه صبرًا، وأن يعينه على حسن القول والعمل فيما ابتلي به، ويعلم يقينًا أنه بلا عون الله له فلن يستطيع الصبر، وسيفقد قدرته على التحمل، وقدرته على انتظار الفرج، وستحيط به الظنون حتى تخرجه عن صبره، وتحمله إلى الحماقات والفتن، وسوء التصرف. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[٢].

- لله: أي أنه يصبر محبة لله، ويصبر لأن الصبر عند الله محمود ومحبوب، ويريد أن يُرِيَ الله من نفسه خيرًا، فتجد المبتلى قد رضي عن الله حين ابتلاه واستعان به في بلواه واجتهد في تلمس كل وسائل الصبر، لأن الله يحب الصابرين. وهذه النية تمنح المبتلى لذة في صبره وتسلية في مصيبته.

(١) تقريب مدارج السالكين منزلة الصبر بتصرف.

(٢) سورة النحل، آية: ١٢٧.

- مع اللّه: يعني خلال مدة صبره فإن المبتلى دائمًا يسأل نفسه ما هو مراد اللّه مني حين ابتلاني؟ وما مراده مني أثناء مدة الابتلاء، وما مراده مني بعد انكشاف البلاء، ففي كل مرحلة من مراحل أزمته؛ يراقب شرع اللّه ويفعل ما يرضيه، وكلما خطر بباله طريقة ليتخلص بها من البلاء، عرضها على قلبه هل يليق هذا بحال الصابرين؟ وهل يريد اللّه مني غير ذلك؟

٢. **انتظار**: يعني قضاء مدة في البلاء في انتظار الفرج.

ولا يمكن لأي إنسان تحمل ضغط الأزمة وثقل البلاء مدة طويلة مالم يكن له في ثنايا الأزمة عمل مع اللّه يجدد به حياة قلبه ويشعر فيه بالتقدم، وينسيه طول الانتظار، وخير ما يرزقه اللّه المبتلى حتى لا يستبطئ الفرج هو الثقة في وعد اللّه، وأن يفتح له في العبادات، والذكر، وترتيل القرآن، وكلما عرضت على المبتلى حالة تفقده صبره وتجعله يستعجل النهاية فما عليه سوى قراءة سير الرسل والأنبياء وما حصل لهم من ابتلاءات ثم يتأمل كيف استجاب اللّه لهم، ونصرهم.

٣. **معالجة**: يعني أنه كلما عرضت على القلب فكرة تضعف الصبر، قابلها المبتلى بفكرة تنقضها، وتُبطل تأثيرها على النفس. والمعالجة تكون على مستويين (مستوى الأفكار والخواطر ومستوى العادات والرغبات):

أ. معالجة الأفكار والخواطر:

لأن الذين يعانون من كربة، أو أزمة؛ ينهال على عقولهم سيل من الأفكار، فمرّة أفكار فيها تخويف، أو إرجاف للقلب، ومرة فيها تذكير بمواضع الألم والحزن، ومرة تشكيك في عاقبة الصبر، ومرة خواطر مدمرة تدعو المبتلى لفعل ما لا تحمد عقباه، حتى ينسى حزنه ومشكلته مثل تناول المسكرات، أو البيوع المحرمة، أو قبول الكسب الحرام، أو السحر، أو الخيانة، حتى يسرع بالتخلص من معاناته. وفي هذه الحالة فإن أنجع علاج هو كثرة الذكر، وكثرة سؤال الله الهدى، والاعتصام بالصلاة، وكثرة الدعاء بالتوفيق، ومحاولة الإجابة على أية فكرة سلبية، فيقوم المبتلى بينه وبين نفسه بردّ أي شيء يقلل من ثقته بربه. ومراجعة المثبّتات، والمبشرات، وآيات السكينة.

ب. معالجة العادات:

يعني معالجة الرغبات التي تُضعف الإرادة. ومعناه أن المبتلى عليه أن يقاوم رغبات نفسه، حتى يكتسب قوة شخصية يستطيع بها اكتساب (لياقة نفسية) فيستطيع تحمل الحرمان، ويستطيع تحمل الآلام. وأكثر الناس تحملًا لطول المعاناة، هم الذين كانوا

أكثر جدية في معاملة أنفسهم إذا رُزقوا الثقة باللّه.

وحول هذا المعنى يقول بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر، فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر"[1].



(١) ابن القيم، عدة الصابرين.

ميثاق الشكر

الشكر هو عمل في مقابل نعمة. ومعناه أن الإنسان إذا أُسدي له معروف فإنه يظل مدينًا بالفضل، فإذا قام بعمل يرد به ذلك الفضل أو جزءًا منه سُمّي شكراً.

فالشاكر يعمل عملًا ليوفّي حقاً وجب عليه بالنعمة[١].

فما سرّ الشكر في قوة الميثاق؟

الشكر نتيجة لمقدمة تبدأ في الذهن وتنضج في النفس الوفية، وتُثمر عملاً:

تبدأ في الذهن: يعني أنه بمجرد ما يتعرض الإنسان لنعمة من المنعم جَلَّ وَعَلَا أو فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن ذهنه مباشرة يتجه للتفكير في حق هذا المنعم، وما هو العمل المناسب لمقابلة هذا الفضل. فالشاكرون أول ما يوفقون إليه هو ملاحظة حق المنعم قبل التفكير في التنعم بالنعمة.

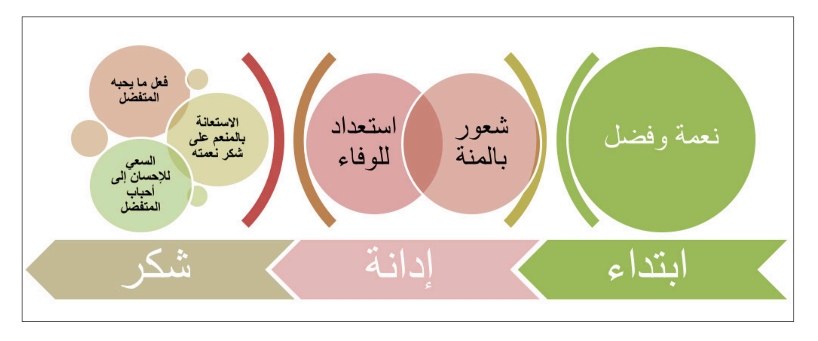
تنضج في النفس الوفية: يعني أن النفس التي من طبيعتها المروءة، تشعر بالمنة والإدانة لصاحب الفضل، وترى أنها مقيدة بهذا الفضل، ومحملة به حملًا ثقيلًا يحتاج لعزيمة على الوفاء به،

(١) والوفاء قريب منه إلا أنه يكون في القيام بحق وجب بميثاقٍ ملزمٍ، بوضعٍ أو تراضٍ.

فتتولد إرادة واستعداد نفسي للوفاء، حتى أنها لا تحتاج لمحفز لذلك سوى انتظار الفرصة.

تثمر عملًا: يعني أن الإنسان لا يزال يبحث عن فعل يعبر به عن رده للجميل، وإذا كان هذا الجميل أكبر من أن يستطيع إنسان رده بالمثل فإنه يبحث عما يحبّه المنعم فيقوم به كتعبير عن الشكر له.

والشكل التالي يوضح هذه المعادلة:



فبين المنعِم وبين المنعَم عليه ميثاق وفاء بالديَن، لا تفي به إلا نفوس الشاكرين.

وإذا علمت أن نسيان الفضل يعني ترك العمل وفق مراد المتفضل، وأن إنكار المنّة يعني الاستعداد للجحود الذي هو كفر النعمة فلك أن تتخيل مدى السوء الذي يضمره إبليس للإنسان حين يتوعده بحرمانه من أن يكون من الشاكرين. قال اللّه جَلَّ وَعَلَا يحكي جواب إبليس: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[١].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧.

ومعناه: (ولا تجد، ربِ، أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، كَتَكْرِمَتِكَ أباهم آدم بما أكرمته به، من إسجادك له الملائكة، وتفضيلك إياه عليّ)[1] وبالتالي لا يقومون بواجب الشكر من التوحيد والطاعة.

إن الشيطان في موقفه السيء هذا يعلن طريقته في تحقيق غايته التي قال عنها: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وهذه الطريقة هي تزيين الباطل ومنع النفوس من رؤية وملاحظة النعم وتغييب حق المنعم عن الأذهان، فيكونون للجحود أقرب منهم إلى الشكر. وهل الشكر إلا التوحيد والطاعة.

ومن عَلِم أن نعم الله عليه سابغة وتأمل فضل الله عليه بتعليمه كتابه الكريم، وجب عليه أن يفي بميثاق الشكر لمولاه الذي علمه وهداه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[3].

من فوائد الشكر:

١. من تأمل النعم وتحرى رؤية فضل الله عليه وشغل ذهنه بما يجب عليه تجاه ما أنعم الله به، فإن ثباته على الخير وصبره

(١) تفسير الطبري.

(٢) سورة ص، آية: ٨٢ –٨٣.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٣.

عليه، وتحمله للمشاق يكون سهلًا، لأن عقلية الشكر تعظِّم النِعَم وتهوّن النِقَم.

٢. الشكر يجعل التكليف سهلًا على النفس، ويجعل العمل أكثر لذّة، لأن الذي يشعر بالمنة وأنه مدان بالفضل يكون متحفزا ومستعدًا ذهنيًا ونفسيًا ليباشر أي عمل يردّ فيه الجميل أو يعبِّر به عن امتنانه وشكره لمن أحسن إليه[(١)].

٣. عقلية الشكر تمنح صاحبها فرصة الإكثار من أعمال الشاكرين ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٢)].

٤. السلامة من آثار المصائب، وما يقع لحامل القرآن من عقبات أو مظالم أو أمراض. فتساعده نفسه الوفية، وذهنه الذي يلاحظ النعم على حسن الظن بالله، وعدم ازدراء نعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يقع له من الحزن ما يقع للمتسخطين، ومهما فاته من دنياه لا يزال يرى أنها لا ترقى ليساويها بنعمة الهدى والعلم، وبقية نعم الله التي لا تحصى.

٥. حصول الزيادة من النعم الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[(٣)].

---

(١) نسمع كثيرًا من يقول: متى تأتي الفرصة التي أستطيع فيها رد بعض الجميل لفلان. وهذا يوضح استعداده للشكر ومتعته بالقيام به.

(٢) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٣) سورة إبراهيم، آية: ٧.

ميثاق الجماعة

جيل القرآن الأول بدأوا مسيرتهم مع رسول اللّه تعالى بعد الإيمان به بالسمع والطاعة، ومبايعته على ذلك في المواضع التي أثبتتها السيرة.

ثم لا يزال القرآن الكريم وسنة رسول اللّه ﷺ تحثّ على لزوم الجماعة وتحذر من الفرقة، وشق عصا الطاعة: قال اللّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[١]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٢]، وقال تعالى أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٣].

وفي إيضاح فضل الجماعة قال ﷺ: «من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»[٤]، وفي بيان خطر مفارقة الجماعة قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وأنا آمركم بخمس اللّه أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٤) صحيح سنن الترمذي.

والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع»[١].

وأهل القرآن أحوج الناس إلى تحري الاتباع وتجنب الافتراق، لما قد يقع بين أهل القرآن من حوارات ونقاش قد تؤدي إلى التنازع تفضي للهلكة: فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رجلاً قرأ آية وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فجئت به النبي ﷺ فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٢] ولحماية القلوب من الاختلاف أمر النبي ﷺ بالقيام عن القراءة ففي الحديث عنه ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[٣]؛ فمن أجل قطع طريق النزاع يقطع المجلس الذي يثير الفرقة والاختلاف.

وخطورة ذلك أن هذا النوع من الاختلاف يحوّل الخصومة من رأي إلى دِين، ومن أصعب الخصومات ما كان أصحابها يرون أن رأيهم فيها دينًا لا رجعة عنه.

وميثاق الجماعة يعني جماعة المسلمين العامة القائمة التي في رقاب أصحابها بيعة لإمام حاكم، فإن طاعته واجبة، والوفاء بعهد البيعة له من جميع رعيته حق له، وهذا الحق في رقاب أهل

(١) صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البخاري ومسلم.

القرآن أوثق، لأنهم يؤمنون بما فيه من تعظيم المواثيق والعهود، ولو أنكرت النفوس ما أنكرت، فمهما كنّا غير راضين فإن الحقوق لا علاقة لها برضىً ولا سخط، فمن وجب له حق وجب أداؤه ولو لم ترغب النفوس ذلك. بل إن أهل القرآن حالهم في الحقوق كحال صاحب الزكاة في دفعها عن طيب نفس منه. لأن الذي فرضها عليه هو الذي رزقه ووسع عليه. ولا يُعذر أحد بنقض بيعة واجبة بحجة أنه يرى أمورًا يكرهها وتنكرها نفسه، فإن الذي أوجب علينا عمل الصالحات، وترك المنكرات هو الذي أوجب علينا الطاعة في المنشط والمكره.

ومن نظر إلى شدة الخطاب في شأن تفريق الأمة عرف خطر المخالفة، فعنه ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ -وَهْيَ جَمِيعٌ- فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ»[١].

وفي التحذير من الفتن التي تصرف عن لزوم هذا العهد يقول معاذ بن جبل وهو يسأل النبي ﷺ: «قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[٢].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري من حديث حذيفة المشهور في الفتن.

ما الذي يعصم من مفارقة الجماعة:

١. الافتقار عدم الاغترار بعلم أو عبادة أو بحفظ كتاب اللّٰه تعالى. فعن عبداللّٰه بن مسعود أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يقولون من كلام خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[١].

٢. تجنب نبز العلماء أو انتقاصهم، أو مقابلة أقوالهم بأقوال من لا علم له راسخ. ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٢].

٣. توخي السلامة من الفتن بالبعد عن الخوض فيها أو الدخول إلى مواقع ومنافذ إشاعتها.

٤. لزوم العبادة والذكر وسؤال اللّٰه الهداية.

٥. تجنب متابعة أقاويل من يستفز ثباتك، أو يزعزع يقينك ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٣].

---

(١) صحيح سنن الترمذي.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٣.

(٣) سورة الروم، آية: ٦٠.

٦. الانتباه إلى من يوظفون قضايا الدين والأمة لأغراض مشبوهة غير معلنة .

٧. طلب المناصحة من أهل التقوى والورع والعلم وقبولها منهم .

٨. التعلم من دروس التاريخ التي بقيت فيها الجماعة وذهب المارقون.

٩. تذكر شرف القرآن وأنه ليس سلعة يتم توظيفها لأغراض لا تليق.

١٠. تأمُّل الخير، ونشر أخباره، ليشيع الشعور بالسكينة، وحسن الظن، حتى لا يقال هلك الناس.



ميثاق العداوة

إبليس عدو الإنسان الذي لا ينبغي نسيان عداوته قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

لقد عهِد الله إلى آدم وذريته من بعده أن إبليس عدو بيّن العداوة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢]، الوفاء بعهد العداوة يلزم منه ملاحظة عداوة إبليس، في كل الأحوال، والسعي لما يرضي ربنا جَلَّوَعَلَا، ويغيظ عدو الله إبليس. ولقد ظن إبليس ظنًّا فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٣]؛ فصدّق ظنه على من تولاه ممن كفروا نعمة ربهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

فعداوة إبليس لنا عداوة حقيقية، وقائمة ومستمرة. لكن هل عداوتنا نحن له قائمة ومستمرة؟

---

(١) سورة يس، آية: ٦٠-٦٢.

(٢) سورة فاطر، آية: ٦.

(٣) سورة ص، آية: ٨٢-٨٣.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٠.

ليكن في قلب حامل القرآن من الحرص والتحرّي ألا يدع للشيطان فرصة لينسيه تلك العداوة، وألا يتيح له فرصة أن ينسيه عهد ربه، وميثاقه، وكلما نزغه من الشيطان نزغ استعاذ بالله، واعتصم بمولاه من عدوه، وكلما مسّه طائف من الشيطان تذكر، فأبصر.

حامل القرآن ينتظر وعدًا غيبيًا لا يتخلف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[1]، والغرور هو الشيطان كما فسره ابن عباس[2] لكننا من حيث لا نشعر ننسى عداوته.

فما الذي ينسينا عداوة إبليس؟

الجواب:

حين لا نتأمل دور الشيطان في ما تنتجه عداته مثل:

١. الدنيا وملهياتها لأن الدنيا وسيلة الشيطان، في تغييب الأخرة

٢. التباغض واستعداء المسلمين لبعضهم، لأن فساد ذات البين يحلق الدين

٣. المعاصي، لأن المعصية طاعة إبليس.

٤. الغفلة عن الذكر، لأن ذكر الله عاصم، من الشيطان.

(١) سورة فاطر، آية: ٥.

(٢) ابن كثير.

٥. سوء الظن بالله، لأن الشيطان يسعى لإبعاد العبد عن الوثوق بوعد الله.

٦. الغضب، لأنه من الشيطان غالبًا.

٧. تولي أهل الباطل والركون إليهم، لأن في ولايتهم عداوة المؤمنين.

٨. هجر مجالس الصالحين. وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وكل عداوة تصيب المؤمنين فإن وراءها عدوهم إبليس، وكلما اعتصم المؤمن بالله، وداوم على أذكار الاستعاذة والاعتصام منه، عصمه الله ووقاه، فإن امرأة عمران قالت حين وضعت مريم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾[١].

وليس لنا عدو بعد إبليس، إلا من حادّ الله ورسوله من الكفار والمنافقين[٢]؛ فالله ولي الذين آمنوا وأولئك وليهم الطاغوت. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٦-٣٧.

(٢) ذكر الله أعداء آخرين مثل بعض الولد، والزوج لكننا نقصد أصل العداوة الظاهرة العداء.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

وأهل القرآن أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

أهل القرآن بعضهم أولياء بعض، لا يركنون إلى الذين ظلموا.

أهل القرآن قلوبهم لكل المسلمين، يخفضون جناحهم للمؤمنين، تتسع أخلاقهم لما لم تتسع له أموالهم. فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. مال غنيهم يرد على فقيرهم، وقليله مشاع بينهم. الكبير يوقرونه، والصغير يرحمونه، والعاثر يقيلونه، والمخطئ يغفرون له. تجمعهم كلمة التوحيد، وتربيهم كلمات الله، وسنة رسول الله ﷺ.



الخاتمة

وفي نهاية هذا الجهد البسيط أسأل الله أن يرزقنا حسن الوفاء بحق هذا القرآن، والتمسك به وبسنة المصطفى ﷺ وأن يعفو عنا إنه هو العفو الغفور.



فهرس المحتويات





قيم معيارية منتقاة للوفاء بحق كتاب الله

(إلى حملة كتاب الله وخُدّامه)

لكل مهنة أخلاقها التي تنظم علاقات أهلها وتضبط سلوكهم وتغذي تصوراتهم، وخير من تمثّل الأخلاق وعاش بها، هم أهل القرآن، وخير أهل القرآن رسولنا محمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

ولأن علاقة أهل القرآن بالقرآن علاقة عهد ووفاء وميثاق التزام؛ كان لا بد من تدوين ملخص يحوي إشارات للملامح القيمية لهذا الميثاق الشريف، الذي يسهم في إحياء قيم القرآن الكريم في نفوس حافظيه وطلابه وخُدّامه، ليتمكنوا من حمل هذا الشرف العظيم، والمسؤولية الجسيمة. وذلك من خلال تمثل قيم وأخلاق أهل القرآن.